448

HARLEQUIN

روايات أحلام

لن أعيش في ظلك

ميليسا جايمس

www.elromancia.com

مـــرمـــوريـــة

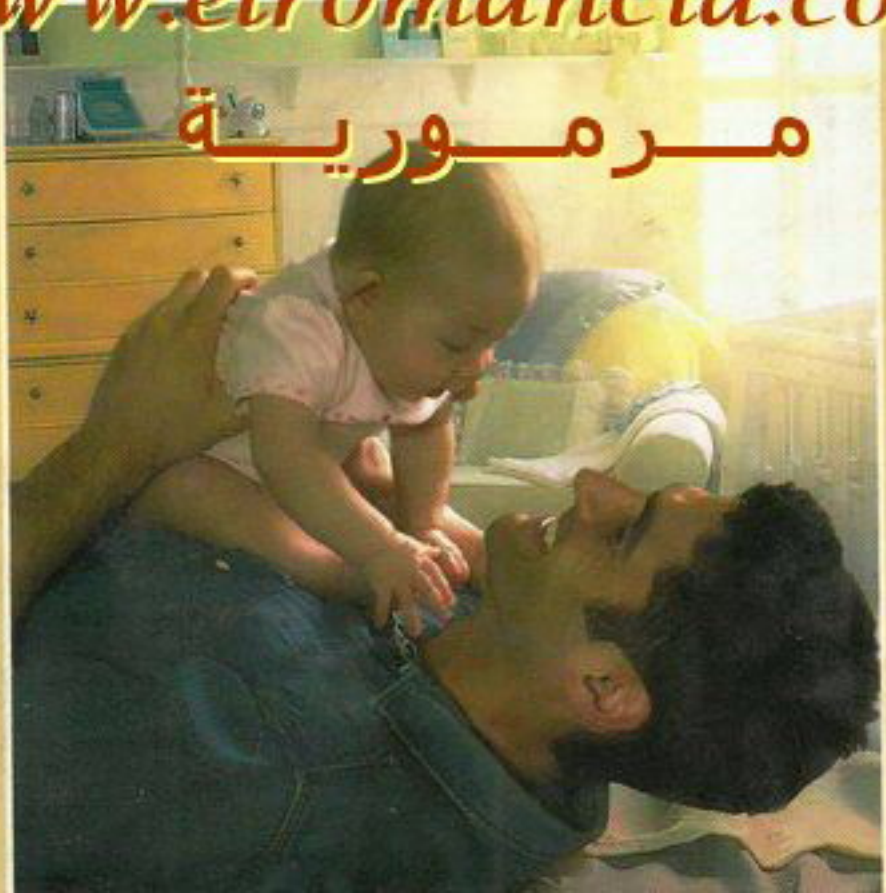

لن أعيش في ظلك

عندما تعرفت جنيفر إلى جارها الجديد نواه. كان يتخبط محاولاً لعب دور الأب والأم معاً لأولاده الثلاثة. ولم تستطع جنيفر أن تحل محل الأم التي اختفت منذ عدة سنوات، ولكنها حاولت أن تدخل بعض الحب والبهجة إلى قلب هذه العائلة المسكينة وأن تساعدهم على تخطي خسارتهم.

فجأة تقدم نواه بطلب الزواج منها. فهل فعل ذلك بدافع من شعوره بالحب أم لأنه يحتاج أماً لأولاده؟ وماذا سيحدث لعلاقتهما عندما ينكشف سر اختفاء الأم؟

لبنان:	3000ل.ل	البحرين:	1دينار
سوريا:	100ل.س.	السعودية:	10ريال
الأردن:	1.5دينار	مصر:	8جنيه
الكويت:	750فلس	المغرب:	15درهم
الإمارات:	10دراهم	تونس:	2.50دينار
قطر:	10ريال	عمان:	1ريال

ISBN 978-9953-18-499-6

روايات أحلام

تصدر عن شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م
المدير المسؤول: آمال سابا الهاشم

حقوق النشر والطباعة والتوزيع باللغة العربية
محفوظة لشركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.
بترخيص خطي من Harlequin Books S.A

كل الحقوق محفوظة، بما فيها نسخ الكتاب بكامله أو جزء منه بأي شكل من الأشكال
تم نشر هذه الطبعة بالاتفاق مع شركة Harlequin Books S.A

العلامة التجارية Harlequin وشعار Joey هما ملك شركة Harlequin Books S.A
وهما مستعملان هنا بترخيص منها

كل شخصيات هذه الرواية وهمية. أي شبه بين هذه الشخصيات وأشخاص حقيقيين أحياء كانوا أم أمواتاً هو محض صدفة

العنوان الأصلي لهذه الرواية باللغة الإنكليزية:
A mother in a million
First Puplished in Great Britain 2007
Harlequin Mills & Boon Limited
©Melissa James 2007
Translation © Dar El-Farasha - 2009
ISBN 978 - 9953 - 15 - 459 - 6

شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م. طريق المطار - سنتر زعرور -
ص.ب: 8254/ 11 هاتف/ فاكس: 450950 - 453115 -1-0961 - بيروت - لبنان
Email: info@darelfarasha.com - http:www.darelfarasha.com

أعزائي القراء

لأننا عوّدناكم دائماً على أجمل الروايات العاطفية... ولأننا نعرف أن قراءنا لا يرضون بأقل من الأفضل... ولأن هدفنا دوماً المحافظة على واحة حب تخفّف من وطأة الآلام والهموم في عالمنا... لهذا، اخترنا أن تكون هديتنا إلى قرائنا هي انضمامنا إلى أسرة هارلكوين Harlequinالعالمية.

لماذا هذا الاختيار؟

لأن شركة Harlequinهي رائدة الروايات الرومنسية في العالم أجمع، وهي تتعاون مع أفضل الروائيات في هذا المجال، وتصدر شهرياً أكثر من ٧٠ عنواناً جديداً.

ستظل روايات أحلام على سابق عهدها من حيث اختيار القصة الشيّقة والأسلوب الرفيع واللغة السليمة... والتغيير الذي ستلاحظونه هو في زيادة عدد الروايات شهرياً، وتنوع الموضوعات لتناسب جميع الأذواق، وسيكون لمشاركتكم باختيار المواضيع المفضلة لديكم وبأسماء الروائيات اللاتي أحببتموهن، الدور الأساسي.

بكل إخلاص
أسرة أحلام

www.elromancia.com

١ - الجارة الجديدة

هينشليف شمال نيو ساوث وايلز، أستراليا.

- كلا، أيها الشقي تيمي، أعده لرودي.

- حاول ذلك أيها الخاسر.

- سأخبر والدي، أيها الولد السيء.

فقال الولد الأكبر سناً بلهجة مغيظة: «هيا أخبره، لنرى إن كان يهتم، هذا إن سمعك أصلاً».

تنهدت جنيفر مارش ووضعت الغطاء الذي تحيطه على حضنها. ها هم أولاد عائلة الجيران يتشاجرون مجدداً. لم يمضِ على انتقالهم إلى الحي سوى أسبوع واحد وهي لم تسمعهم سوى يصرخون ويتقاتلون. اجتازت السياج الفاصل بينهما أربع مرّات لتتعرف إليهم، لكنها كانت تعود في كل مرّة بصمت بعد سماع أصواتهم ومشاجراتهم.

كانت تعيش في قرية صغيرة، ويمكنها معرفة كل ما تريده عنهم، لكن مع كل ما عانته هي نفسها في الماضي من وشوشات وكلام، فضّلت الانطواء على نفسها وانتظار الجيران كي يأتوا ويعرّفوا عن أنفسهم وقد انتظرت حتى الآن سدىً. لعلهم ليسوا من الأشخاص الذين يحبون الاختلاط بالجيران. لكن الأولاد على الأقل لا يتمتعون بمثل هذا الإحساس بالخصوصية فالسياج الفاصل بينهما هو المكان المفضل لحصول المشاجرات.

ناداها صوت داخلي عميق قائلاً إنّ عليها التدخل عاجلاً أم آجلاً، صوت غريب لا يحمل أيّ مرارة أو استسلام إنما شيء ما بينهما. بدا الأمر أشبه بما قاله مارك آخر مرّة قبل أن يرحل. ألم يقل لها: لا أصدق أنك

انتظرت أسبوعاً كاملاً قبل أن تتدخلي للمساعدة. وسمعت بوليانا تقول مجدداً: هيا اذهبي واجعلي حياة الجميع أفضل. أليس هذا سبب انتقالك إلى هنا؟ لتنظمي حياة العم جو بعد أن توفيت العمة جين؟

كفى! كفاها محاربة الأشباح. يمكن لمارك أن يفكر بما يشاء وهو يفعل ذلك بأي حال. وإن أتت إلى هنا لتساعد العم جو على تخطي حزنه بعد مأساة فقدانه لجين فقد فعلت ذلك حتى تهرب من الشعور بالشفقة... وتهرب من أخواتها المحاطات بأولاد معافين...

أتى صوت الولد المرتعش ليقطع حبل أفكارها: «بل أبي يهتم!».

كان الصوت يقطّع القلب تماماً كصوت كودي... لابد أنه في الثالثة من عمره تقريباً بعمر كودي حينذاك.

كان يمكن أن يلعبا معاً علماً أن كودي لو بقي لبلغ الآن الخامسة من العمر. وازدادت حدّة الغصة المعتادة في حلقها واغرورقت عيناها بالدموع، لكنها أخذت نفساً عميقاً عازمة على أن تستعيد هدوءها. كفاها بكاء! سوف تفتقد كودي حتى آخر رمق من حياتها، وسوف تفتقد دورها كأم لبقية حياتها أيضاً، لكنها اكتفت عذاباً وبكاء...

- بلى يا رودي أبي يهتم.

انتزعها الصوت الحزين المثقل بالتعب والأسى من دوامة المرارة وعملية الشفاء البطيء.

لكن نكأ الجراح ليس شفاءً يا جين، افهمي هذا!

قال الرجل بلهجة قلقة: «أنا أخجل بك يا تيموثي برانيجان، أتغيظ ولداً بعمر الثالثة؟ لقد طلبت منك الاهتمام بأخيك الصغير لنصف ساعة بينما أضع إعلاناً للعمل. لماذا سرقت غطاءه؟».

وقبل أن تدرك ما تفعله، وقفت جنيفر قرب النافذة تراقب من خلف الستائر. عليها أن تهتم بشؤونها الخاصة... لكن فرص التسلية ليست متوفرة أينما كان، فهذه بلدة قديمة معزولة عن الحضارة، لا يوجد فيها أيّ جديد.

إنها تسكن في أحد المنزلين القائمين على التلة المطلة على البحر. منزلان توأمان قديمان تكسوهما الأعشاب المعربشة ويبعدان خمسمئة متر عن الشاطئ وثلاث كيلومترات عن وسط البلدة، مكان معزول بما يكفي للاستمتاع بالسكينة والهدوء، ورائع بما يكفي لملء الروح بالجمال.

قال الولد بصوت مرتعش وهو ينظر إلى أبيه: «لم أسرقه. كان يضعه في فمه، وهذا أمر مخزٍ يا أبي. رائحته باتت مقرفة، انظر إلى...».

رد الرجل الطويل البني الشعر، بصوت عميق أجش وهو يضع يده على كتف الولد: «قد يكون الأمر مخزياً بالنسبة إليك يا تيم، لكن رودي ليس سوى ولد صغير. والآن أعده فسوف أغسله غداً مع بقية الغسيل».

وانحنى نحو الغطاء موضوع النزاع قائلاً: «إنه مقرفٌ فعلاً، أليس كذلك؟ سوف أغسله غداً».

أجاب الطفل بنبرة المنتصر: «أجل تيمي. إذاً أعد غطاء رودي!».

- هيا خذه وامرض الليلة فهذا لا يهمني.

انفجر الولد الصغير بالبكاء حين جرّه أخوه الكبير مع الغطاء على الأرض وقال: «أبي، تيمي شرير».

سكتت تأوهات الولد المسكين حين رفعه الوالد بين ذراعيه وهو يقول بقلق واضح: «تيم، اذهب إلى غرفتك وابقَ هناك لربع ساعة».

- ومن يكترث؟ ليس هناك ما نفعله بأي حال! أنا أكره المكان! أكرهه!

ضرب الولد ذو السنوات السبع أو الثماني الأرض بقدميه وهو يسرع نزولاً إلى حيث يلعب الأولاد ودفن الرجل وجهه في شعر ولده الكث فيما أحاطته ذراعا الصغير تربتان على كتفيه وكأنهما تواسيانه.

كانت جنيفر تتألم من وراء النافذة وهي تراقب المشهد. يا لهما من ولدين مسكينين ووالد مسكين! بدا تعباً بقدر ولديه.

وتساءلت أين والدتهما؟ ثم أليس لديه فتاة؟ أدركت أنها شاهدت بضع مرّات بنتاً متشابكة الشعر تتجول في المكان بشعرها الذهبي وعينيها الزرقاوين.

وفجأة، تعالى صوت حفيف من مكان ما فوق رأس جنيفر، تبعه صوت أقوى.

التفتت ورفعت رأسها إلى الأعلى. كانت الفتاة ذات الشعر المتشابك على إحدى الأشجار في حديقة جنيفر، وإبهامها المتسخ في فمها وعيناها الزرقاوان المتسعتان اللامعتان تحدقان في جنيفر.

فتاة في الخامسة من عمرها على شجرة علوّها خمسة عشر قدماً. سرت رعشة رعب في قلب جنيفر فهي لا تستطيع التسلق. لطالما كانت الفتاة الصغيرة الناعمة التي لم تسبب أيّ قلق لأهلها. كانوا يعرفون دوماً مكان وجودها وماذا تفعل فهي أصغر أخوتها الأربع ومحط اهتمام أمها الدائم.

أين والدة الطفلة؟

كان عليها أن تفعل شيئاً ما... ابتسمت للفتاة متمنية ألا يظهر مدى رعبها في عينيها وقالت: «مرحباً».

وتابعت: «أدعى جنيفر».

انقبضت عضلات فم الفتاة على إصبعها. كانت تمصّه بغضب طفل يخاف الغرباء.

قالت وهي تتسلق النافذة وتخرج باتجاه الفتاة: «إنها شجرة جميلة، أليس كذلك؟».

لم يكن لديها أدنى فكرة عما عليها أن تفعله في اللحظة الراهنة، لكن عليها أن تتكلّم، أن تتواصل مع الطفلة لتنزلها: «إنها الشجرة المفضلة لديّ في الحديقة».

لم تتلق أي إجابة.

التفتت تنظر إلى الأعلى باتجاه الغصن.

الطفلة صغيرة جداً والشجرة باسقة جداً... سألتها: «ما اسمك؟» وقد بدأت تشعر باليأس.

كانت عينا الطفلة مغرورقتين بالدموع. ماذا لو غشي نظرها؟ ماذا لو أحسّت بالرعب في الأعلى؟ يا إلهي، لن تحتمل الذهاب إلى المستشفى مجدداً في

سيارة إسعاف مع طفل يحتضر.

صرخت فجأة وقد تذكّرت مخزن الكعك الصغير في البراد، مخزن الجوائز والأطايب التي تحتفظ بها للأولاد الذين تعتني بهم أربعة أيام في الأسبوع: «أترغبين بتناول كعكة؟ أستطيع أن أعطيك المقرمشات مع الشوكولا الذائبة».

أشرق وجه الفتاة وهي تهمس وكأنها تبوح بسرّ: «أنا أحب الشوكولا!».

أخبرتها جنيفر وهي تشعر وكأنها حققت انتصاراً عظيماً: «لدي حليب أيضاً».

- شوكولا بالحليب؟.

لم تستطع أن تمنع نفسها عن الضحك وهي تقول: «أستطيع أن أحضر الشوكولا بالحليب على شرفك».

وأضافت وهي تفكر بمخزن آخر من الآيس كريم: «ما رأيك بهذا؟ هل يستحق أن تنزلي من أعلى الشجرة من أجله؟».

قالت الفتاة بصوت مبحوح: «قلت كعكاً. فهل تحضّرين لي كعكة كبيرة بالشوكولا؟».

سألتها جنيفر مبتسمة: «هل تحبين الشوكولا فعلاً؟ أجل سأحضّر لك كعكات ضخمة مع الكثير من رقائق الشوكولا».

كان الكعك مع رقائق الشوكولا من الأطباق المفضلة لدى كودي. غير أن كودي لن يأتي مطلقاً لتغميسها بالحليب ونشر الفوضى على الكرسي العالي. حالياً يجلس بن وآمي وساشا وجيريمي وشانون في ذاك الكرسي في فترة النهار على الأقل.

إن ملء الفراغ باللجوء إلى أولاد الآخرين أمر مثير للشفقة بحسب قول مارك. لكن على الأقل لم يكن الصراخ الآتي من الفراغ يملأ نهارها وليلها، فكانت تتمكن أثناء النهار من الإمساك بأيدي الأطفال والاستمتاع بمنظر عيونهم الكبيرة المليئة بالثقة، عيون تنظر إليها تستلهم منها الإرشاد والمرح

www.elromancia.com

والأمان. . . لقد جعلت من المكان حضانة للاهتمام بالأطفال وكانت أماً لهم، واكتشفت على مدى الأشهر الثمانية عشر الماضية أن البديل أفضل من لا شيء على الإطلاق.

وسألت الطفلة: «إذاً هل يستحق الكعك والشوكولا بالحليب أن تنزلي عن الشجرة؟ أم أحضّر لك بعض المعكرونة؟».

طرحت السؤال الأخير يدفعها الأمل وهي تقول في سرّها: أرجوك انزلي قبل أن تسقطي!

وبدت الفتاة مبتهجة وهي تقول: «معكرونة. أنا أحب المعكرونة»

- إذاً سأحضّر لك المعكرونة والشوكولا بالحليب والكعك. ما اسمك؟

وأضافت ضاحكة على أمل أن تكسب ثقة الفتاة: «لا أستطيع أن أحضّر المعكرونة أو أشارك أحداً تناول الكعك من دون أن أعرف اسمه».

قالت الفتاة بلثغة لم تستطع جنيفر أن تعلم ما إذا كانت طبيعية أم بسبب وجود الإصبع في فمها: «بريسيلا أميليا برانيغان».

- حسناً يا بريسيلا أميليا برانيغان، هل تودين المجيء إلى مطبخي لتناول الكعك والشوكولا بالحليب والمعكرونة؟

وارتاحت عندما رأت الفتاة تبتسم وتسحب إصبعها من فمها وتستدير للنزول عن الشجرة برشاقة حسدتها عليها. ولاحظت بطرف عينها حركة ما على السفح. إنه الصبي البكر تيم يخرج من نافذة غرفة نومه.

بدا لها أن الجار ليس لديه أدنى سلطة على أولاده. كانت متأكدة من أنه لم يمض على بدء عقابه سوى خمس دقائق وهذا الولد يشعر بالثورة والتمرد بحيث لن يطيع الآخرين.

سرت في أوصالها رعشة من الشفقة وتذكرت الرجل المنهك والمنهار الذي تعلق بولد بسن الثالثة بحثاً عن الراحة. وقبل أن تتمكن من ردع نفسها لوّحت للصبي آملة أن يقترب بدافع الفضول، إن لم يكن لأي سبب آخر. على أحدهم أن يساعد الرجل المسكين، أعني الأولاد المساكين.

- أمسكي بي!.

ومدّت ذراعيها غريزياً لتضم إليها في غضون لحظات كائناً ذا بشرة حريرية دافئة تفوح منه رائحة تراب امتزجت بعبق شامبو الأطفال.

كانت تهتم يومياً بأولاد الآخرين وتحملهم وتدور بهم وتعتني بهم حين يصابون بأذى، لكن ملمس هذه الطفلة بالذات خنقها إلى حد أفقدها القدرة على التنفس؟

وضعت سيلا على الأرض بعناية ورفق لكن رعشة عميقة وصلت حتى العظام صعقتها قبل أن تضعها.

- أين الكعك؟.

أعادها الصوت المليء بالأمل من عالم الضياع ورأت عينين كبيرتين واسعتين تلمعان وهما تنظران إليها.

تمالكت نفسها كما اعتادت أن تفعل طوال الثمانية عشر شهراً الماضية، بعد أن وجدت نفسها أمام خيارين فإما الغرق في عالم لامتناه من اليأس أو محاولة تحقيق شيء ما بما تبقى من بقايا حياتها. فقالت مبتسمة: «أجل الكعك، لكن لنذهب ونغسل وجهك ويديك أولاً».

وجدت يد صغيرة دافئة طريقها إلى يدها، وأشارت سيلا إلى السياج الفاصل حيث راح وجه متسخ جداً يسترق النظر إليهما، وقالت: «تيمي أيضاً يريد كعكة».

رغم أنها اعتادت أن تمسك بأيدي الأطفال الآخرين يومياً، إلّا أنّ الإحساس بيد الطفلة في يدها ملأ قلبها بثقة لذيذة، وأثار ذكرى قوية في داخلها وأبرز حاجتها للأمومة التي لا بد من أن تفكر فيها لبقية حياتها. كفى! وأدارت وجهها وابتسمت للصبي القلق العدائي الصغير وقالت: «إذاً، أنت تيم».

هزّ الولد رأسه ورفع ذقنه بشكل مشاكس يوحي بالاستعداد للقتال ثم قال بعدائية: «عمري ثماني سنوات».

- وأنا جنيفر. أراهن على أنك تحب المعكرونة والكعك مع الشوكولا أيضاً.

ابتسمت لسيلا بينما تسلّق أخوها السيّاج في وقت قياسي. فكرت جنيفر وهي تراقب الولد كم هو نحيف. إنه لين الجسم وجائع وقلق ويعيش معاناة رغم أنه لم يتعدَّ الثامنة من العمر...

ودّت لو ترسل الولد إلى غرفته ليمضي فيها عقابه وتخبره أن الطعام سيكون بانتظاره بعد أن ينفذ كلام والده فهي تعلم أن إطاعة أوامر الوالدين أمر أساسي. لكن جنيفر وجدت نفسها تقول: «هيا إذاً تعال».

حسناً يا جين، ما كنت لترسليه إلى غرفته مطلقاً.

والتوت شفتاها بابتسامة وهي تفتح له الطريق.

خطر لها أنّ تيم لن يقبل بغسل وجهه ويديه فاقتادت سيلا إلى الحمام متمنية أن يفهم الرسالة.

لكنه لم يفعل. وعادا إلى المطبخ ليجداه جالساً إلى الطاولة، وقد ارتسمت على وجهه نظرة جريئة تتحداها أن تفكّر حتى في أن تطلب منه الذهاب إلى الحمام. كان لديها فكرة أفضل تستند إلى ردود فعل شانون الذي تقوم برعايته كل ثلاثاء وخميس. وبحاجب مرفوع، وضعت منشفة صغيرة مبللة بمياه دافئة على الطاولة أمامه وتسمّرت في أرضها تنتظر. لم يقم تيم بأي خطوة للمس المنشفة، بل ثنى ذراعيه على صدره وانتظر وكأنه يقول لها أجبريني إذا استطعت. وشعرت بيد تشدها فنظرت جنيفر إلى سيلا التي بدا وجهها الصغير مليئاً بالأمل بعد أن اختفت عنه البقع المتسخة. وقالت الفتاة: «إني جائعة جداً... وقد اغتسلت».

ابتسمت جنيفر قائلة: «أنت محقة سيلا».

وفتحت الخزانة وأخرجت صحنين وضعت فيهما الكعك ثم دسّتهما في الميكروويف بينما هي تحضّر الشوكولا بالحليب.

كوب واحد، وصحن واحد.

وأجلست سيلا على الطاولة مع وجبتها قائلة: «هذا لك يا حلوة».

واستدارت لتبعد الصحن وهي تشير بهدوء: «ما كنت لأفكر بالأمر لو أني مكانك يا تيم».

شهقة الولد أعلمتها أنها كانت محقة إذ أوشك على سرقة طعام سيلا: «سوف يكون الحليب والكعك هنا في غضون ثلاثين ثانية، وتذكر أنه يمكنك العودة كل يوم طلباً للمزيد... إذا اغتسلت أولاً».

لم تتوجه بالكلام لأحد معيّن ونظرت إلى ساعتها وبدأت العدّ: «اثنان وعشرون... خمس وعشرون...».

شهقت حين حطّت المنشفة على رقبتها وكتفها.

كان عليها أن تعرف أن مقاتلاً كتيم لا يمكن إخضاعه! كافحت للحفاظ على هدوئها لكنها انفجرت ضاحكة واستدارت لترى وجهاً نظيفاً ارتسمت عليه ابتسامة شريرة ودفاعية قلقة، غير متأكد ما إذا كان سيتعرض للتأديب على يد غريب.

انتزعت المنشفة عن كتفها ورمتها عليه لتستقر على رأسه. ضحكت سيلا وصفقت قائلة: «ردّها لها تيمي».

كشر تيمي ورمى المنشفة ضاحكاً عندما ارتدت جنيفر إلى الوراء وهي تمسح فمها وكأن اتساخ وجهه قد انتقل إلى وجهها.

كادت سيلا تختنق من الضحك عندما ردّت جنيفر المنشفة وضربتها بها فقامت بدورها برميها على تيم الذي رماها على جنيفر.

امتلأت الغرفة بالضحك وبالهجمات بمنشفة الغسيل المتسخة.

في الخارج، كان نواه برانيغان يراقب المشهد ورودي ينام بين ذراعيه. رأى تيم يتوجه نحو السياج فلحق به، لكن جلّ ما استطاع فعله الآن هو التحديق من خلال الزجاج، بغبطة عارمة إلى حدّ الألم. فتيم كان يضحك.

مضت ثلاث سنوات بالضبط منذ أن رأى ابنه صغيراً إلى هذا الحد. مجرّد ولدٍ يمرح لأنه يستطيع أن يمرح، هكذا ومن دون سبب... ورأى سيلا هناك، أجل سيلا الخجولة جداً التي لم تكن تتحدث إليه أبداً من دون أن تضع إصبعها في فمها والتي لا تتحدث مطلقاً إلى الغرباء. كانت سيلا تختفي كل يوم منذ انتقالهم من سيدني من دون أن يتمكن من إيجادها. كان يتمنى فقط لو يفهم لما أصبحت سيلا صامتة إلى هذا الحد ومنطوية على ذاتها.

أما الآن فلم تكن تتحدث وحسب بل ترقص من الفرح، وعيناها الكبيرتان تلمعان فيما تنثر فتات الكعك من فمها على الطاولة. لقد شاركت في رمي المنشفة المتسخة على المرأة التي صرخت ورمتها بدورها مع تكشيرة على تيم الذي تفاداها وتلقاها بيد واحدة. رماها مجدداً على الجارة التي فشلت في تفاديها فيما راح وجهها يشع بالفرح والحبور.

من كان ليظن أن ولديه سيجدان السعادة ويضحكان لمجرّد رميهما منشفة متسخة على بعضهما البعض؟

همس رودي من فوق كتف والده: «إنهم يمضون وقتاً مسلياً يا أبي».

فهمس الأب والعرفان بالجميل يؤلمه: «أجل بالفعل يفعلون».

- أريد كعكة أيضاً.

تململ رودي بين ذراعي والده وسارع إلى الداخل متأكداً من أنه سيلقى الترحيب به: «رودي يريد كعكة».

لقد سمع عنها الكثير من هنري الميكانيكي والخبير بكافة أنواع التصليحات وأفضل ناقلي الأخبار في البلدة. إنها جنيفر مارش وقد رفعت المنشفة عن وجهها، واستدارت نحو ابن نواه بتعبير مستغرب لم يستطع تفسيره. لكن هذا لم يدم سوى للحظة قبل أن تقول بابتسامة وهي تمسك بيده: «يستحسن بنا أن نغسل يديك ويمكنك عندئذ أن تحصل أنت ورودي على الكعك».

رمت المنشفة للمرّة الأخيرة نحو تيم ثم مدّت لسانها نحوه منتصرة وهي تقود رودي الصغير إلى الحمام.

كان نواه يعرف ما يكفي عن جارته، فهي مطلّقة في أواخر العشرينات والوحيدة في البلدة التي تهتم بالأولاد المشردين. ومع ذلك، فمنذ اللحظة التي رآها فيها من بعيد، رفض التقدّم منها والتعريف عن نفسه، كما يتطلب حسن السلوك الاجتماعي. إنها امرأة هادئة، وغالباً ما تراها ترتدي أثواباً قطنية بسيطة وأحذية خفيفة، وتترك شعرها منسدلاً على كتفيها. بدا أنها قادرة على التواصل بشكل طبيعي مع الأولاد الذين تقوم برعايتهم، فهم

يتبعونها كظلها وقد شعر أولاده بذلك رغم المسافة الفاصلة. فالضحك واللهو اللذان يعجّ بهما المنزل كانا يجذبان أولاده ويدفعانهم للعب عند الأشجار القريبة من السياج كل يوم.

لكنها لم تكن تلك المرأة الهادئة بالنسبة إليه، بل ثمة لغز يحيط بها. على مدى السنوات الثلاث الماضية، وصل رعب تيم الدائم من أن يتزوج والده مرّة ثانية إلى حدود مخيفة. وقد عيّن نفسه حارساً على أبيه، ولجأ إلى أسوأ أنواع السلوك لإبعاد أي امرأة تقترب من والده، سواء أكانت مسنّة أم متزوجة. وإن تجرأت إحداهن على مغازلته كانت كوابيس ابنه المرعبة المأساوية أكثر مما يستطيع نواه تحمله.

لا يعرف تيم من الحقيقة سوى القليل. مع فقدان بليندا، لن تتمكّن من التوقيع على أوراق الطلاق وسيضطر للبقاء متزوجاً من بيليندا وكأنها تشاركه حياته وفراشه، لسبع سنوات. كان بإمكانه أن يرفع قضية طلاق، لكن بأي ثمن؟ لم يكن والداها ليسمحا له بطلاق ابنتهما من دون أن يحدثا فضيحة كبرى وقد رفض نواه التسبب للأولاد بضرر أكبر من الذي حدث لهم.

وهكذا، بقي منسياً وعاجزاً عن التعرّف إلى أي امرأة قد تكون أماً للأولاد في السنوات الأربع المقبلة. وحتى لو رغب نواه في إدخال امرأة ما إلى حياته فلن يقبل تيم بامرأة أخرى سوى أمه. يا له من مسكين صغير! لقد عانى الكثير في السنوات الثلاث الماضية. قال طبيبه النفسي إن تصرفه هذا هو مزيج من الأسى والخوف من فقدان والده، مصدر أمانه الوحيد. وقد اعتصم الوالد بالصبر إذ قد تطول المسألة حتى يتمكّن تيم من أن يقف على قبر بيليندا ويبدأ بالشفاء بعد طي الصفحة.

كان الطبيب محقاً فتيم لا يزال يبحث داخل أي سيارة عابرة وأي متجر وأي شارع عن إشارة تدل على وجود بيليندا. أما نواه فقد فارقه هذا الشعور منذ سنة إذ كان شديد الانشغال بالحفاظ على عائلته ودفع ديونه، لكنه نجح بطريقة ما في تحسين الأمور.

هذه المرأة جعلت الأمور أفضل فتيم وسيلا يضحكان مجدداً. ومع أن

جزء منه تألم لأنه خارج اللعبة لكنه لن يتدخل ويفسد الأمر. لم تعرف جنيفر مارش بوجوده وكانت تظهر لطفاً غير متكلف وتمضي وقتاً مرحاً مع الأولاد. كانت تظهر لتيم أن بعض النساء قد يظهرن المحبة له من دون أن يهدد ذلك أمنه، ورغب في أن يعانقها بحرارة من أجل ذلك.

لا تفكر بالعناق ولا تفكر بها كامرأة أصلاً.

عندما عادت من الحمام كانت لا تزال تمسك بيد رودي... وتلك النظرة ترتسم على وجهها مجدداً. كانت عيناها تخفيان صراعهما الداخلي. كانت جنيفر مارش تعيش مع أشباح ترفض أن يراها الأولاد... لكن الألم في عينيها أذهل نواه رغم إرادته. كل ما تفعله يلفت انتباهه بدءاً بتلك الابتسامة التي تنير وجهها إلى حركة وركيها وهي تمشي. وضعت رودي على الكرسي المرتفع بجانب الطاولة وشدت الحزم حوله بأمان.

- حسناً حان وقت كعكاتكما.

جمدت نظرات نواه على ابنته التي أخفضت عينيها إلى سطح الطاولة وعادت تضع إصبعها في فمها. تألم لعجزها عن طرح السؤال والطلب مجدداً من جنيفر أن تضع لها بعض الكعك كأي ولد طبيعي. كانت تحذو حذو أخيها الأكبر باعتماد الصمت من دون أن تتوقع شيئاً من الآخرين. لم ترقه فكرة أن يكون سيلا وتيم ولدين غير طبيعيين، لكنه لم يجد سبيلاً لمحاربة هذه الحقيقة. كل ما كان بوسعه أن يفعله هو لمّ شمل العائلة.

في الأشهر التي تلت ولادة رودي، وبعد أن انقضت فترة كآبة ما بعد الولادة، كانت بيليندا أماً رائعة، وتعرف كيف تضبط سيلا وتيم. لم تكن ترتكب أيّ خطأ.

استدارت جنيفر مارش نحو سيلا بابتسامة وغمزة، فحبس نواه أنفاسه عند رؤيته لحلاوة عينيها الزرقاوين الطويلة الرموش، وشفتيها الزهريتين وهي تقول: «أظن أن شخصاً ما هنا لا يزال جائعاً».

لم تحمل الكلمات أيّ توبيخ لسيلا التي استجابت سريعاً، لكن الإصبع بقي في فمها وهي تبتسم.

أدارت جنيفر ظهرها فتطاير شعرها البني اللامع حول كتفيها. ولاحظ بعض النمش على أنفها في وجهها البيضاوي. لم يبدُ على قامتها البدانة أو النحافة في سروال الجينز والسترة البنفسجية اللون.

ما من شيء مميّز في جنيفر مارش بل هي مجرد امرأة عادية. لكن عندما نظرت إلى سيلا، بدت بابتسامتها المليئة رقة وحناناً امرأة أكثر عمقاً وأغنى من أن تكون مجرّد جميلة. تعاملها مع الأولاد غيرّ شيئاً ما ليس في جسمه فقط بل في قلبه.

هزّ رأسه بعنف إذ لم يعجبه المنحى الذي اتخذته أفكاره. لم يقم علاقة مع أيّ امرأة منذ اختفاء بيليندا قبل ثلاث سنوات، ولم يشأ أن يصحو جسده من سباته العميق فهذا تعقيد هو بغنى عنه.

بدا أن لا خيار لديه. لقد انتقل إلى هنا بحثاً عن التغيير وحصل عليه فعلاً، فهو جار لامرأةٍ يجدها ملفتة. والأسوأ أنها لم تقل له كلمة واحدة بعد. فما الذي قد يحصل عندما يلتقيان؟ وإن علّق تيم على الموضوع... سيطر على نفسك برانيغان. لعلك لن تعجبها حتى.

لم يكن من الغباء بحيث يظن أنه رجل تحلم به أيّ امرأة. كان قد اضطر للتخلّي عن مهنة الهندسة بعد أن باع مشروع سيدني لدفع ديونه التي اكتشف وجود معظمها بعد رحيل بيليندا. كان لديه ثلاثة أولاد عليه رعايتهم وهو بالكاد يتمكن من ذلك. ليته لاحظ مدى إحباط بيليندا! نظرت جنيفر في ساعة يدها ووضعت المزيد من الكعك في الفرن، ومزجت الشوكولا والحليب وتابعت: «أتعرفين ماذا أميليا بريسيسلا؟ لقد حان وقت الغداء. وأظنه الوقت المناسب لتحضير المعكرونة للجميع».

صرخ رودي مبتهجاً: «أجل، المعكرونة! أحبها!».

قالت سيلا متلعثمة وإبهامها لا يزال في فمها: «ومن ثمّ المزيد من الكعك؟».

- ومن ثمّ المزيد من الكعك.

التوى فمها وتابعت تقول: «يستحسن أن ندع أمكم وأباكم يعرفان مكان

وجودكم. تيم هلا...».

قالت سيلا من دون أي تعبير وكأنها تسرد الحقيقة وحسب: «أمي ميتة».

أغمض نواه الذي يعرف ما سيحدث عينيه، وأطلق دعاء يائساً من القلب طالباً النجدة، متأكداً من أنها لن تساعد بشيء. فما من شيء يمكن أن يساعده.

كان على وشك أن يتدخّل، أن يعتذر ربما. لكن تيم قاطع كلام جنيفر بحدّة: «أمي ليست ميتة! كانت حزينة وابتعدت لفترة. وستعود!».

نظرت سيلا إلى جنيفر بعينين كبيرتين يملأهما الأسى لكنها لم تتكلم إذ علمت أن تيم سيتوكل بالمهمة.

وتابع تيم يصرخ: «اصمتي يا مصّاصة الأصابع. ستجدنا، ستفعل! على الرغم من أننا على مسافة أيام من المنزل الآن، إلّا أنّ جدي وجدتي يعرفان مكانها. وهي قالت إنها ستعود!».

قال رودي بعينين واسعتين مسمّرتين على جنيفر التي هرعت لجلب الكعك: «ليس لدي أم».

وتمتم تيم: «بلى، لقد رحلت بسببك أيها الفاشل».

وحشا فمه بالكعك وابتلع الحليب دفعة واحدة ثم استدار خارجاً. إنه ابن أمه؛ عندما تسوء الأمور كثيراً ينفجر...

طرق نواه زجاج الباب القديم قبل أن يصل تيم إلى البوابة وقال: «مرحباً، أرى أن أولادي وجدوا وجبة طعام مجانية».

تكلم بنبرة مازحة أو حاول ذلك، لكنها أتت خالية من أي نكهة تماماً كأجواء المطبخ القروي القديم الصغير.

كانت نظرة تيم تحمل الاتهام وعرف أنه على وشك أن يتعرّض للتوبيخ، والهجوم أفضل أشكال الدفاع.

اختفت نصف يد سيلا في فمها، وعاودتها الرعشة المثيرة للشفقة. وبعد دقائق قليلة ستختفي هي أيضاً، ولا يملك نواه أي وسيلة لشفائها. كان غيابها يخيفه حتى الموت لكنه يحاول أن يجعلها تفهم أنه ليس غاضباً بل خائفاً

عليها وحسب. وكانت تقول دوماً: «آسفة، أنا فتاة سيئة يا أبي أرجوك لا تذهب كما فعلت أمي».

قالت جنيفر بهدوء: «تفضل يا سيد برانيغان وتناول قطعة كعك. كنت على وشك تسخين القليل منه للأولاد».

كانت نظراتها إليه أقوى من كلماتها، وكأنها نظرات تمدّ له يد المساعدة.

- هل ترغب في فنجان شاي أو قهوة معها أو لعلك تريد شوكولا بالحليب؟».

لفت المزاح انتباه تيم الذي سارع إلى انتقاد والده قائلاً: «إنه يحضّر أسوأ شوكولا بالحليب في العالم».

وأضاف بمكر: «إنه يضيف الكثير من الحليب بحيث يختفي لون الشوكولا وطعمه».

اقترحت وهي تبتسم وكأن الثورة التي انفجرت حول اختفاء بلينيدا لم تحصل مطلقاً: «إذاً ربما عليّ إحضار علبة شوكولا أخرى وتعليمه كيفيّة إعداد الشوكولا بالحليب أم أنه يسكب الحليب على الأرض؟ ما رأيك يا سيد ساكب الحليب برانيغان؟».

وقهقهت سيلا... أجل كانت سيلا تقهقه.

أراد أن يأخذ جنيفر بين ذراعيه بل أن يرتمي في أحضانها ويشكرها من أعماق قلبه لمثل هذه الهدية التي منحتها لسيلا للتو، فطفلته الجديّة المتأذيّة كانت تضحك وأراد أن يهتف من البهجة.

قال بصوت تملأه العاطفة: «في الواقع، أدعى نواه ساكب الحليب برانيغان».

- أنا مسرورة جداً للقائك سيد نواه ساكب الحليب برانيغان.

ومع قهقهة الأولاد مجدداً ابتسمت جنيفر وسحبت له كرسياً مضيفة: «وأنا أدعى جنيفر مارش».

لقد حوّلت الابتسامة التي أضاءت الغرفة طريقه وملأته قوة. أيعود ذلك لتأثيرها أم إلى المكان؟ بدا وكأنما بلمسة عصا سحرية انتقلوا إلى مكان سحري

حيث لا وجود للألم. أصبحت هذه العائلة طبيعية منذ أن دخلت منزل جنيفر مارش.

وعندما نظر إليها شعر أنه طبيعي أيضاً... وأنه عاد مجرّد شاب... وكان هذا جميلاً.

ابتسم متسائلاً ما إذا كانت تعرف اسمه كما يعرف هو اسمها فالشائعات تسري سريعاً في أرجاء البلدة: «تسرني رؤيتك يا جنيفر التي تعدّ شوكولا بالحليب مارش».

وضحك الأولاد مجدداً، ضحكوا معه وعليه...

أولاده كانوا يضحكون كأي أولاد آخرين.

وعندما جلس على الكرسي الخشبي البسيط، أحاطت به رائحة الشوكولا والفانيليا والكعك، ودهان المفروشات والهواء النظيف. كانت الصور تنتشر على الجدران، ولوحات الأرقام وأحرف الأبجدية. أما على أرض الغرفة الثانية المجاورة، فتمتد سجادة قديمة بألوان قوس قزح تنادي الأولاد وتتوسّلهم للعب عليها. بدا واضحاً أنّ ما من ولد في المنزل. لعلّه مع والده الآن؟ لا بد أن جنيفر مارش أم، فما من مكان للعناية بالأولاد في سيدني مثل هذا المنزل الذي تفوح منه رائحة الحب والأمومة.

تمر الأولاد الثلاثة أعينهم على جنيفر وكأنها ستختفي إن أزاحوا نظرهم عنها لا سيما سيلا ورودي اللذين لا يتذكران بيليندا.

أما تيم فحكاية أخرى أكثر حزناً. فبالرغم من حبه الواضح لكعك جنيفر وطريقتها اللطيفة في التعامل مع روح التمرد لديه، إلّا أنّ القلق ظهر في عينيه وهما تتنقلان بين جنيفر مارش ووالده. فأمه الحبيبة التي فعل ما بوسعه لحمايتها من الإحباط تركتهم مع فتاة في الرابعة عشرة من عمرها ورحلت عن المنزل ولم تعد... لكنها ستظل أمه دوماً. كان تيم دوماً في موقع الحراسة، يحمي العائلة كما طلبت منه بيليندا. وهذا بمثابة عهد مقدّس بالنسبة إليه.

وبدلاً من اللعب بالجنود الدمى، كان هو نفسه جندياً في حرب لا

تنتهي. اضطرار ابنه الصغير لعيش مثل هذا القلق والخوف والترقب الدائم وهو في الثامنة من عمره كان يثير لدى نواه الرغبة في البكاء. لقد أمضى ليالٍ طويلة لم يذق خلالها طعم النوم وهو يحاول تصوّر طريقة تشفي ابنه. يحاول تحليل سبب رحيل بيليندا.

فهم هذه الأيام حاجة المرء للهروب من حياته، مهما كان يحب عائلته. لكنه لم يستطع أن يفهم كيف لم تعد أبداً ولم تطمئن أبداً إلى حال الأولاد الذين تعشق...

إجابة واحدة بدت له منطقية، لكن أنّى له أن يعرف؟ لو تلقّى خلال السنوات الثلاث الماضية رسالة واحدة أو اتصالاً واحداً لظن...

ومع حلول الذكرى السنوية الثالثة لرحيلها لم يعد يحتمل الوضع أكثر فباع المنزل في دورال الغربية ورحل بعيداً جنوبي سيدني. بيعه كل ممتلكاته كان كافياً لتسديد الديون التي لم يصفيها بعد، فاشترى المنزل المجاور بسعر زهيد، آملاً أن يساعد تغيير المشاهد والناس والابتعاد عن والديّ بيليندا في وضع حدّ لحزن عائلته ولمّ شملها.

أدرك الآن وهو على بعد سبعمئة كيلومتر عن سيدني وذكرياتها الحزينة، أن معجزة فقط قد تضع حدّاً لكابوس عائلة برانيغان. لكن، ألم يشهد لتوّه حدوث معجزة هنا في مطبخ جنيفر مارش؟ فأولاده كانوا يلعبون للمرّة الأولى منذ ثلاث سنوات... وخشي أن يأخذهم إلى المنزل ويواجه مجدداً الحقيقة المؤلمة جداً.

٢ - نبع الأمل

كان لنواه ساكب الحليب برانيغان أسوأ أنواع الابتسامات على الإطلاق، ذاك النوع الذي يجعلها تنسى ما تفعله فيما هي تقوم به.

وكان ذلك سيئاً، سيئاً جداً. في الواقع، لم تعرف مثل ردّ الفعل هذا تجاه أي رجل منذ دخل مارك ماكبرايد حياتها وهي في السابعة عشرة من عمرها وعاد ليخرج منها بعد سبع سنوات، قبل ثلاثة أشهر من إصابة كودي بالنوبة الأخيرة، تلك النوبة التي لم تتمكن أدوية العالم بأسره من جعله يتنفس بعدها.

شدّت قبضة يدها اليمنى بقوّة لتوقف ارتعاشها. إنها تعاني من هذه الحالة منذ سنتين تماماً. لكن لمَ ترتجف إحدى يديها دون الأخرى؟ وكأنها تعاني من خلل أحادي الجانب في الدماغ. لقد فعلت كل ما بوسعها كي تعود إلى حياتها الطبيعية، فتقبّلت ماضيها ومستقبلها. كانت تعاني بالوراثة من تليّف في كيس المثانة وحتى يجدوا علاجاً لحالتها لن تتمكن من المخاطرة بإنجاب أولاد آخرين. أما مارك الذي يحمل المرض نفسه بشكل طفيف فيعيش بعيداً حياة أقل تعقيداً.

أما عالمها فيسير بخطى بطيئة وبهدوء وصفاء. لم تكن ترغب في أي شيء آخر لتجعله كاملاً فهي سعيدة بما يكفي كما هي.

لكن لِمَ تستمر اليد اليمنى بخيانتها على هذا النحو؟

- أين المعكرونة؟.

أتى صوت الولد يهزها ويخرجها من أفكارها وكأنه دواء. وجدت جنيفر أنها تستطيع أن ترفع نظرها إليه مجدداً، حتى أنها ابتسمت له وقالت: «إني

آسفة يا رودي، فقد وعدتك بإعدادها لك، أليس كذلك؟ المعكرونة ستكون جاهزة بعد قليل».

وفي محاولة لإثبات سيطرتها على يدها، سحبت درج الأواني بقوة أكثر من اللازم ما جعله يقع.

وقعت على الأرض وفوقها الدرج العتيق الكبير، فيما صمّ صوت الأواني أذنيها وأحسّت بألم في أسفل ظهرها وراحتيها.

انفجر الأولاد الثلاثة ضاحكين وصرخ رودي: «انظروا إليها! إنها مغمورة بالأواني».

رفع عنها الدرج في غضون ثوان ووضع يديها بين راحتيه الدافئتين القويتين ثم سألها: «هل أنت بخير يا جنيفر؟ هل يؤلمك موضع ما؟ هل تستطيعين الوقوف؟».

- أنا، لا أعرف. أعتقد...

لا لم تكن تعتقد لأنها لم تستطع أن تفكر أصلاً، فيداه تحيطان بيديها وتشعرانها بشيء من الغرابة والدفء والأمان... و...

يدان قويتان. يدا بنّاء صلبتين وقويتين تماماً كجسمه ذي العضلات المفتولة...

أجل، هكذا خدعت نفسك مع مارك، أليس كذلك؟

- جنيفر؟ هل أحضر لك الطبيب؟.

رفعت نظرها إلى نواه مذهولة. بدا القلق على ملامح وجهه الأسمر، وفي العينين البنيتين بلون شعره.

قالت: «كلا، أنا بخير».

لكنها أدركت أن أنفاسها مقطوعة. إنه التفاعل الغريزي بين المرأة والرجل الذي لم تشعر به منذ سنوات.

عادت تقف على قدميها مجدداً. كيف حصل ذلك؟ منذ لحظة، كانت على الأرض ويداها بين يديّ نواه، وها هي تقف على قدميها الآن.

- هل أنت واثقة من أنك بخير؟ لا تبدين متماسكة.

وضع يده وراء ظهرها وأدارها نحو المقعد كي تجلس وهو يضيف: «ربما يجب أن تجلسي».

عندئذ، أدركت أن إحدى يديه لا تزال تمسك بيدها، ولم تتمكن من أن ترفع عينيها عنه. ولم تعرف إن كان ترنّحها بسبب السقوط أم بسبب تأثير هذا الرجل فيها.

أجابت بمكر وهي تبتسم له: «بغض النظر عن كرامتي المخدوشة، أشعر أنني بخير والجلوس قد يؤذيني أكثر مما يساعدني».

- فهمت.

وكشر فحبست أنفاسها مجدداً وقالت له برقة: «شكراً، نواه».

وتساءلت لما كانت دوماً تفضل البشرة السمراء على البشرة الفاتحة اللون.

- أبي، توقف الآن.

حملت الكلمات نبرة توبيخ وأمر. وراقبت جنيفر غيوم الألم في عيني نواه الذي بدا أكبر من عمره، وأكثر حزناً مما يستطيع العالم بأسره أن يحتمل. زوجته، أمّ أولاده! يا إلهي، ما الذي كانت تفكر فيه؟ إنه رجل متزوج، بغض النظر عن مكان وجود زوجته. إن لم يطلقها بعد فهو ليس حراً. أفلت يدها والتفت نحو تيم هادئاً وحزيناً، إنما بحزم وجدته جديراً بالتقدير وقال: «تيم، أنت فظ جداً وناكر للجميل. نحن في منزل جنيفر ونأكل على مائدتها وقد آذت نفسها واحتاجت مساعدة».

احمرّ وجه الصبي ونظر إلى الطاولة قائلاً: «لم يكن يجدر بك...».

لم يحتج لأن يكمل كلامه إذ سطعت الكلمات بوضوح: لم يكن عليك لمسها.

وهكذا، انقلبت جنيفر من صديقة إلى عدوّة في عينيّ الصغير الذي أراد أن تعود أمه إلى المنزل.

قال نواه برقة وقلق بارزين وكأنهما خاضا هذا النقاش من قبل: «بل كان عليّ فعل ذلك. وإن لم تعرف لماذا، فهذا لأني فشلت في تلقينك آداب السلوك. كانت جنيفر لطيفة مع الجميع. فهل تتوقع مني أن أتركها على

الأرض تتألم؟».

لم يرفع تيم نظره إليه ولم ينطق بكلمة واحدة. قدرة نواه على التعامل مع الابن المتمرّد سمرتها مكانها، أما حبه لابنه فكان ينضح منه ومن عينيه الدافئتين.

تألمت لتفرّق العائلة لكنها أدركت أنه ليس عليها التدخل. فما لا تعرفه قد يؤذيها أو يؤذي غيرها. لم يكن هذا مكانها.

لكن الأمر المستغرب هو أنه بدا وكأن زوجة نواه المفقودة تقف في هذه الغرفة معهم. فحضورها القوي في قلب تيم جعلها تبدو حقيقية بحيث استطاعت جنيفر رؤيتها.

قال نواه بلهجة هادئة لا لين فيها: «تيم اعتذر لجنيفر».

- كلا. لا أريد تناول المعكرونة على أي حال. هذا المكان مقرف!

ودفع الكرسي بعنف وخرج مسرعاً من المنزل.

تدحرجت الكرسي وسقطت أرضاً محدثة ضجة كبيرة في أرجاء المنزل. مصّت سيلا إصبعها بقوة وكأن حياتها تعتمد عليه فيما حدّق رودي في والده بشفقة وانكسار ثم قال بهدوء: «هل نبحث عن تيمي يا أبي؟».

كأنه أمر اعتادا فعله كثيراً من قبل.

لم تعرف ماذا تفعل، فالتقطت جنيفر وعاءً عن الأرض وتوجهت تملأه بالماء من أجل إعداد المعكرونة.

- جنيفر، أعني، آنسة مارش.

سمعت الاعتذار غير المعلن في نبرته، فاستدارت وابتسمت له وهي تقول: «لدي صلصة معكرونة جاهزة دائماً يا سيد برانيغان. أحتاج لتسخينها فقط. لمَ لا تترك سيلا ورودي هنا وتمضي بعض الوقت مع تيم؟».

اسودّ وجه نواه ولم يقل شيئاً لكنها شعرت بحيرته بين الأمل والخوف.

- أنا أقوم برعاية الأولاد بكفاءة ما سيد برانيغان كما أني جارتك. لعلك لاحظت أني أدير مركزاً لرعاية الأولاد. يحق لي رعاية ستة أولاد في آن واحد.

وأضافت بلهجة مهنية خالصة: «يمكنك الاتصال بفرد شيربروك قائد الشرطة المحلية للتأكد من كفاءتي، تجد الرقم على الحائط بجانب الهاتف».

اشتدت عضلات فكيه وهو يقول: «لا أستطيع أن أدفع لك».

هذا إذاً هو سبب تردّده. لابد أنه يجد صعوبة في قول ذلك. واشتدت قبضتا يديها في محاولة يائسة لتخطي رغبتها في أخذ يديه بين يديها. يمكن لسيلا أو رودي إخبار تيم بما حدث لاحقاً، ومن الواضح أن الصبي يشعر بالتهديد: «نحن جيران يا سيد برانيغان وقد دعوتكم جميعاً لتناول الغداء. ليس لديّ أيّ مشاريع اليوم. أرجوك اذهب. ابنك بحاجة إليك! ألا ترى أنه يحتاج لأن تهرع إليه؟».

لقد قالت كل ما تستطيع من دون تخطي الحدود، والباقي يعود له. وبإيماءة صغيرة وقف على قدميه، قائلاً: «شكراً لك».

قالت في إثره وهو يسرع في نزول السلالم: «ستكون المعكرونة بانتظاركما إذا أراد تيم العودة».

كان الجواب الوحيد الذي تلقته هو صوت الباب الزجاجي يغلق. وساد الصمت حيث لم تتمكن جنيفر من إيجاد ما تقوله، فكان صوت امتصاص سيلا لإبهامها هو الوحيد المسموع.

وأخيراً سألت بحماسة مبالغ بها: «هل نحن جاهزون لتناول المعكرونة؟».

غطت سيلا أنفها فلم يعد يظهر سوى بعض من وجهها أما رودي فنظر إليها بعينين كبيرتين صريحتين قائلاً بهدوء: «غالباً ما يصاب تيمي بنوبات الغضب».

بعد ساعتين اتصل خلالهما نواه بهاتف تيم ليجده مقفلاً مجدداً، وذهب أثناءهما إلى كل مكان هرب إليه تيم منذ جاؤوا إلى هنا وفتش كل شجرة وكل متر على الشاطئ، حتى أنه قاد سيارته لبضعة أميال، قرر أن يتصل بالضابط شيربروك ليخبره أن تيم اختفى مجدداً.

سبق أن أعطى فريد ومندي الشرطية التفاصيل، وقد قالت إنه في بلدة صغيرة حيث لن يتطلب إيجاده سوى ساعة أو اثنتين.

جر نواه قدميه نحو باب المنزل المجاور ليحضر سيلا ورودي قبل التوجه للبحث أينما كان للمرّة الثانية.

بناء على تجربته عرف أن تيم سيعود ساعة يشاء، وقد طلب نواه من الله أن يفعل ابنه ذلك. لم يستطع أن يقنع نفسه بأنه يبالغ، فهذا الخوف الدائم كان أكثر مما يستطيع تحمّله. فكلما هرب تيم أو اختفت سيلا كان يشعر أن قطعة منه تتفتت وتتحوّل إلى غبار. كانت حياته تتمحور حول الحفاظ على تماسك العائلة لكنها ظلت تنهار تحت ناظريه.

مع اقترابه من منزل مارش رفع صوت الضحك المتصاعد من الداخل معنوياته للحظة، للحظة واحدة فقط. لمَ أتى إلى منزلها سابقاً هذا النهار؟ أثبتت جنيفر أنها أكثر كفاءة منه في التعامل مع الأولاد، وكان تيم ليشعر بالسعادة والأمن بينهم لو لم يحشر هو أنفه.

لو عاد الأمر إليه لاستدار وترك سيلا ورودي يمرحان ويضحكان فيما يذهب لمساعدة رجال القرية في البحث عن تيم. لكن جنيفر، الآنسة مارش، لديها حياتها الخاصة التي لا تشتمل على رعاية الأطفال إلى ما نهاية من دون مقابل.

ملأ الصراخ الضاحك الأجواء وتبعه صفق للباب الزجاجي. وخرجت جنيفر مسرعة كالبرق وهي تضحك بأعلى صوتها وقد غطت شعرها ألوان متعدّدة من الدهان، وتبعها رودي وسيلا بعد لحظات وهما يلوّحان بفرشاتي الرسم مهددين.

لمحته جنيفر التي لم يستطع التفكير فيها على أنها الآنسة مارش وهي بهذا المنظر. كشّرت ضاحكة ولوحت له بيدها وهي تتجاوزه راكضة نحو الأشجار القريبة من السياج الفاصل وراحت تلوح بيديها كالمجانين. وصرخت وهي تندسّ بين الأشجار في مساحة لا تتسع إلا لولد صغير: «لا يمكنكما الإمساك بي مجدداً».

تجاوزه رودي وسيلا وهما يصرخان: «بل سنمسك بك».

وبعد استعمال فراشي التلوين للمبارزة سمحت لهما «بالإمساك» بها

فوقعت على الأرض لتتيح لهما فرصة رميها بمزيد من الألوان الصارخة.
كان رودي وسيلا يصرخان كمحاربين متنصرين وهما يلوّنان شعرها ووجهها فيما صرخت بدورها وراحت تضحك ضحكة مرتفعة: «حسناً، لقد ربحتما».

وبدأ الولدان يقفزان على بطنها وهما يهتفان: «نحن بطلان».

حين يتعلق الأمر بالأولاد، لم تكن جنيفر مارش تفكر في كرامتها، وقد تجاوب ولداه مع مرحها كبراعم الشتاء التي تعانق الشمس والمطر.

عندما أكد له فريد أنه يمكن أن يعهد لجنيفر برعاية أولاده، أخبره أنها تعيش وحيدة في المنزل. لكن لماذا ليست أماً؟ وماذا لو كان مطلّقة؟ كانت جميلة ولطيفة وتحب المرح، فلِمَ لم يرتبط بها رجل بعد؟

ومن ثم تذكّر ومضات الحزن في عينيها، فعرف أن سبباً قاهراً يجبرها على الاهتمام بأولاد الآخرين بدلاً من رعاية أولادها.

انتفض يبعد أفكاره هذه فالبحث في ماضي جنيفر مارش ليس من شأنه. لديه ما يكفي من المتاعب مع أولاده.

سوف يتجاوز إعجابه البسيط بجنيفر ويصبحان صديقين ويعود الرجل في داخله لينام. ما من خيار آخر أمامه.

وفجأة، شدّه أحدهم من سرواله ما جعله ينظر نحو الأسفل: «أرأيت أبي، لقد ربحنا. أرأيت؟».

بعد أن لاحظ حماسة ابنه العارمة، ضحك نواه ورفعه بين ذراعيه قائلاً: «رأيت يا صغيري. أنت وسيلا محاربان بالألوان بطلان! رائع!»

وحاول بأفضل ما لديه أن يطلق صرخة النصر!

غطى رودي أذنيه بيديه مكشراً: «أبي!».

لكن إبهام سيلا عاد إلى فمها حين نظرت إلى والدها، وامتلأت عيناها الكبيرتان خوفاً يستحيل أن يوحي الوالد به. ولم يتمكن من التربيت على يدها، يد طفلته الصغيرة. لِمَ تخافه؟ ما الذي جعله فاشلاً إلى هذا الحدّ مع أولاده؟.

ونادى صوت أنثوي بمرح: «حسناً، من يريد تحويل المعجون الزهري الباهت إلى ألوان قوس قزح؟».

- أنا! أنا!

- هيا سيلا لنذهب.

ظل رودي يتململ بين ذراعي والده حتى سمح له نواه بالنزول فيما ابتسمت سيلا مجدداً وامتلأت عيناها حماسة لم يستطع أن ينيرها فيها يوماً.

وسمع جنيفر تقول بعد أن دخلا: «اجلسا إلى الطاولة، سآتي بعد دقيقة وأحضرها لكما. أحضرا المزيد من الورق وتابعا التلوين حتى أحضر».

وعندما ذهبا اقتربت منه ووضعت يدها على ذراعه وسألت بوجه يغطيه التلوين ويملأه القلق: «ألم تستطع إيجاد تيم؟».

سرت فيه رعشة غريبة عندما لمسته تماماً كالرعشة التي انتابته عندما رفعها عن الأرض. لم يكن يعرف ما هذا الشعور بالضبط ولم يشأ أن يعرف. لقد التقى هذه المرأة للمرّة الأولى منذ ثلاث ساعات وهي مستعدّة للاهتمام بأولاده، وتشعر بالأسى حياله.

أجل يجب تقديم المساعدة العاطفية للأولاد قبل أن يفسدوا.

سحب ذراعه متمنياً ألا تلاحظ شعوره بحيث تظن أنه خائف: «سيعود إلى المنزل حين يكون جاهزاً لذلك. هذا ما يفعله دوماً».

حسناً، أخبر المرأة أن ابنك يختفي دوماً، لمَ لا؟

وتردّدت في السؤال: «إن كان يفعل هذا عادة، فهل يحمل هاتفاً؟».

تنهد وهو يمرّر يداً في شعره ويقول: «أجل، إنه خارج الخدمة».

قالت بهدوء: «فهمت».

وانتابه شعور أنها فهمت الكثير عنهم، وتابعت: «هل اتصلت بفريد شيربروك؟».

بغضب: «بالطبع فعلت، فتيم في الثامنة من عمره».

تمتمت تقول: «بالطبع ستفعل. يا له من سؤال غبي!».

لكن شيئاً ما في صوتها جعله ينظر إليها عن قرب. حسناً، أراد للشفقة

www.elromancia.com

والقلق أن يختفيا عن معالم وجهها، أليس كذلك؟ وها قد تمّ ذلك. فمن تحت فوضى الألوان كان وجهها الرقيق خالياً من أي عاطفة، لكن غياب التعابير أثر فيه.

- يجب أن أعطي المعجون للأولاد وأضعه على الطاولة. سأعود في الحال.

اتسعت المسافة بينهما وكأن كل واحد منهما على طرف من الكرة الأرضية. حسناً، يمكنها أن تبقي المسافة بينهما بعيدة قدر ما تشاء طالما تعامل الأولاد بشكل جيد.

- لا داعي لذلك. سوف آخذهما معي.

كاد يمتعض للنبرة الحادّة في صوته، وهو يضيف: «لقد فعلت ما يكفي».

قالت بلهجة لا تحمل أي معنى: «أنا غريبة عنهما، لكني وعدتهما. يمكنك أخذ بعض المعجون والتلوين إلى المنزل من أجل الولدين إذا أردت. لدي الكثير هنا».

واستدارت وتوجهت نحو المنزل.

لقد أغضبها لكنها لم تودّ التحدث في الأمر فبالرغم من كل ما فعلت هي لا تزال غريبة.

إنها مجرّد غريبة لم تفعل شيئاً سوى إظهار اللطف تجاهه، وهو لم يرفض لطفها وحسب بل رماها به في وجهها أيضاً.

راقبها تذهب مدركاً مدى رغبته في مناداتها والاعتذار لها.

إنك تدين لها بهذا على الأقل، وأنت بارع في تقديم الاعتذارات، أتذكر؟ لديك تجربة تعود إلى كل مرّة كنت تخطئ فيها بحق بيليندا.

تمنى لو يعرف ما الذي يحدث فجأة للنساء! وتنهد وتبعها إلى المطبخ. كانت المرأة الذاهلة منذ بضع لحظات قد اختفت لتحل مكانها امرأة دافئة حنونة تضحك وهي تحضر كتل المعجون والألوان للولدين.

هل هي قادرة على السيطرة على مشاعرها إلى هذا الحدّ؟ هل تستطيع ذلك فعلاً؟ وتمنى لو يظهر الدفء والحنان والضحك لأولاده، فلعلهم بذلك

يعودون للتعلق به.

- إليكما المعجون وفراشي التلوين. إذا وضعتماها على ورقة نايلون...

قال مقاطعاً حديثها بخشونة لا تستحقها: «لدي بساط ليلعبا عليه».

مجدداً تغيرت تعابير وجهها، فتنهد وقال: «آسف، إني متوتر».

- أعلم أنك كذلك الآن، لكنك أب صالح. ومن الواضح كم تحب أولادك. تيم سيعود.

أجاب متمنياً لو يستطيع صفع نفسه: «أنت لا تعرفين شيئاً عما أفكر أو أشعر به، اسمعي...».

فقالت بهدوء: «لا بأس سيد براينغان، لا أحب أن يتدخل الآخرون في شؤوني أنا أيضاً. من الواضح أني تجاوزت حدودي، وأنا آسفة لذلك أيضاً».

أومأ برأسه، يشعر بالارتباح لأن تفهمها له لم يصل إلى مرحلة الشعور بالشفقة. عندما نظر إلى عينيها من جديد، عينيها الجميلتين اللامعتين بعالم من الألم غير المحكي، قال بخشونة: «اعتدت أن يتدخل كثيرون في شؤوني حيث كنت».

بعد صمت طويل قالت بما يشبه الهمس: «لست وحدك في هذا».

وابتعدت قبل أن يتمكن من سؤالها عن قصدها لكنه حين فكر في الأمر ثانية قال لنفسه إنه لا يريد أن يعرف. وكأنه قادر أصلاً على المساعدة، وهو العاجز عن إبقاء أولاده في المنزل.

- يستحسن أن نذهب.

أومأت وقد أخفضت رأسها قليلاً: «سوف أبقي عيني مفتوحتين وسأتصل بفريد إن عاد تيم إلى المنزل. حسناً؟».

أراد أن يشكرها على المساعدة، لكن كل ما استطاع رؤيته هو جنيفر تقف وحيدة على النافذة تراقب عبر الزجاج عودة ابنه فما من شيء آخر تفعله لملء ليالي الآحاد أو أي ليالٍ أخرى.

وتابعت تقول: «إلى اللقاء».

www.elromancia.com

وفجأة، أمسك يديها بيديه الاثنتين ليقول: «شكراً لك يا جنيفر».

لم تجب لكن تشنج عضلات ظهرها عندما لمسها نطق بآلاف الكلمات. وتمنى هذه المرّة لو أنه لا يستطيع قراءة المرأة.

لقد أرادته أن يأخذ أولاده ويرحل ويتركها وحيدة في هذا المنزل الفارغ؛ المنزل المصنوع للفرح والعائلة والحب، والذي يضم بين جدرانه امرأة وحيدة تحمل الحزن في عينيها الزرقاوين ولا تجد مَن يمنحها ذاك الفرح والضحك...

وفجأة ومن دون أن يعرف السبب، قال لها: «أحب تناول شيء ما في الحديقة الخلفية للمنزل ليلاً بعد أن ينام الأولاد. إذا رغبت في الانضمام إلي الليلة، فسأكون...».

استدارت في مكانها وواجهته بملامح غاضبة لم تبد مضحكة على الإطلاق رغم الألوان التي لا تزال تغطي شعرها ووجهها وأجابت غاضبة حتى قبل أن ينهي جملته: «أنت محق سيد برانيغان، فأنا لا أعرف الكثير عنك، لكني أدرك تماماً أن لديك زوجة حيثما كانت».

اجتاحته موجة من الغضب العارم لسوء تقديرها لنيته في ظل خوفه على ولده تيم، وغبائه لتقديم مثل هذه الدعوة: «قد لا أربح جائزة أفضل أب في العالم أو المحاضر الأهم في علم الأخلاق، لكني لست عديم الأخلاق. لقد اخترت ألا أناقش أموري الشخصية مع غريبة بينما أولادي يستمعون...».

والتفت بسرعة إلى حيث كان رودي وسيلا منهمكين تماماً بالتلوين، قبل أن يكمل بصوت خافت: «لاسيما وأن تيم يحتاج لأن يصدّق أن أمه ستعود يوماً. لكن في السنوات الثلاث التي مضت لم تستعمل بيليندا بطاقة الائتمان ولم تلمس حسابها المصرفي ولم يرها أحد في أي مكان. وحتى لو تخلّت عني أنا إلّا أنها كانت أماً وابنة مخلصة ومع ذلك لم تتصل أبداً بأولادها أو أبويها. لقد وضعت الشرطة علامة في خانة الموتى في ملفها منذ سنة تقريباً».

حبست جنيفر أنفاسها وأحسّت بنوع من الاختناق ثم همست وقد اصفرّ وجهها من هول الصدمة: «أنا آسفة».

بالكاد سمع اعتذارها، فقد كان قلبه يخفق بقوة في صدره وكأنه أنهى لتوه سباقاً، وتابع بصوت خافت: «أريدك فقط أن تعرفي أن الدعوة كانت لتقديم الشكر على رعاية أولادي وحسن الضيافة. ليس لدي ما أكافئك به على ما فعلت اليوم، لكني أردت أن أقدّم شيئاً بالمقابل، صداقتي ربما. فليس لدي شيء آخر أقدّمه لامرأة. ومهما كان رأيك بي، إلّا أني لست دنيئاً لدرجة التفكير بمجارة التقيتها للتو سيما وأنها أظهرت الكثير من اللطف معي ومع أولادي».

لم تعد الآن شاحبة بل اصطبغ وجهها بلون أحمر عميق واغرورقت عيناها بالدموع وهي تقول: «لا أريدك أن تردّ لي شيئاً... نواه».

ومدت يدها وهي تضيف بشفتين ملتويتين: «قد أرغب في زيارة الحديقة الخلفية، لمَ لا؟».

تبخر غضبه كله، وتذكر كل ما فعلته من أجلهم اليوم، وكل ذاك اللطف الذي رماه بوجهها بسبب سوء فهم لم يكن لها ذنب فيه. وأخذ يدها بابتسامة ماكرة وهو يقول: «أصدقاء، إذاً؟».

- أجل، لو سمحت.

كانت لا تزال عاجزة عن النظر في عينيه ويداها ترتعشان.

ماذا عساها تقول؟ فهو لا يعرفها بما يكفي ليدرك ما الذي أثار غضبها، فكل ما يعرفه هو أنه خاسر من الصف الأول الآن.

- جنيفر....

سألته بهدوء: «في أي ساعة تريدني أن آتي، فلا أود الحضور باكراً لئلا يحزن تيم».

تيم!

لقد أمضى ربع ساعة كاملة هنا بدلاً من أن يمضيها في البحث عن ابنه...

- حاولي عند التاسعة. عليّ الذهاب الآن. أيها الولدان علينا الذهاب لإيجاد تيمي وإعداد العشاء.

وأشار لهما بإصبعه فوقف كل من سيلا ورودي. لم يجادلا أو يعصيا أوامره إذ كانا يعلمان أنه يحب إيجاد تيم.

في تلك اللحظة رن الهاتف. وعندما ذهبت جنيفر لتجيب، جمع الهدايا التي أعطتها لأولاده وتوجه نحو الباب.

- نواه، انتظر.

استدار نحوها مجدداً فرأى البهجة تملأ وجهها وهي تقول: «لقد وجدوا تيم!».

٣ - المتفائلة

كانت الساعة قد قاربت التاسعة والنصف عندما خرج أخيراً من الباب الخلفي.

راقبته من حيث كانت تجلس على الأرجوحة الموجودة على شرفتها الجانبية، لكنها انتظرت دقيقة أخرى قبل أن تقف. لم تشأ أن يبدو عليها الاضطراب وكأنها هرعت إليه بمجرّد أن رأته، وكأنها ترى فيه أكثر من مجرد جارٍ جديد وحسب. وكأنه رجل شعرت أنها مضطرة للاقتراب منه والبقاء معه على الرغم من أن شبح زوجته الهاربة بقي يلقي ظلالاً مظلمة بالكاد رأت معها أي نوع من الرجال هو.

زوجة هاربة وابن هارب... لكنها رفضت أن تحكم عليه. ففي النهاية، مارك هرب منها أيضاً. كما أن الرقة والحنان اللذين يعامل بهما أولاده، والألم في عينيه، وظلال الماضي تظهر حقيقة الرجل.

رجل أرادها أن تكون صديقته، رجل يحتاج إلى صديقة في الوقت الحاضر وهي موجوده لأجله، هي التي حملت كل هذا الألم في قلبها ولطالما تمنت لو تجد شخصاً واحداً يفهمها.

سيكونان صديقين. أجل، يمكنها ذلك. وقفزت فوق السياج الصغير وأتت إلى حيث كان ينتظرها على التلة المطلة على البحر، وكأنه ظل للعتمة في ليلة صيف. مجرد رجل ضائع في الماضي.

هزأت خفقات قلبها المتسارعة وهي تقترب منه من فكرة الصداقة.

من الواضح أن عليها أن تكون شديدة الحذر، فنواه براينغان أكثر من مجرّد والد عازب يكافح لجعل ظروف حياته أفضل؛ وهو أكثر من مجرّد

www.elromancia.com

رجل عادي. ولقد أثبت أنه يستطيع ان يرى من خلال الحجاب الذي تضعه على عينيها لتخبئ ألمها. سيُفتضح أمرها إذا لاحظ انجذابها نحوه. . . وإذا لاحظ أنها أمضت ساعة لتقرر أي من فساتينها الفضفاضة سترتدي الليلة، وتحدّد ما إذا كان عليها تضفير شعرها بعد أن غسلت التلوين أم تتركه.

مضت سنوات طويلة على شعورها بعذاب التوقع هذا، سنوات طويلة على رغبتها في التفكير في الأمر. كانت حياتها آمنة ومن ثم طرق رجل بابها يريد استعادة أولاده الرائعين وغيّر حياتها بمجرد ابتسامة منه.

- مرحباً.

حتى صوته كان يترك أثره فيها، فهو دافئ كما الليل ومعتماً كما الطريق المؤدية إلى منزليهما. سرّت لأنّ الليل أخفى احمرار وجنتيها. ولوّح بيده وهو يقول: «ثمة غطاء، إن كنت تستطيعين رؤيته، وقد جلبت بعض الكعك والجبنة أيضاً. آمل أنك تحبين عصير البرتقال».

أجابته بحذر: «أجل، شكراً».

ملأت ضحكة رقيقة الهواء وهو يقول: «اختيار جيد إذاً».

وبكبسة زر أضاء مصباح صغير العتمة واستطاعت أن ترى وجهه: «كنت أحتفظ بالنور إلى أن تأتي، ولدي طارد للناموس أيضاً».

راقبته يشعل النور متسائلة كيف يمكن لمثل تلك الأشياء البسيطة أن تسحرها. وكيف يمكنه أن يجعلها ترتعش من دون أن يلمسها حتى أو ينظر إليها.

جلست على البساط وفتحت العلبة الصغيرة: «إنها نزهة ليلية. لم أمرّ بهذه التجربة من قبل».

كانت تعلم أن الكلمات تتدفق منها لكنها لم تستطع ردع نفسها.

- ليست تجربة بالمعنى الحقيقي للكلمة.

شعرت بالراحة بالرغم من نبرة صوته العادية فاسترخت مبتسمة له: «التجربة هي ما يهم وليس ما نأكل».

ولوّحت بيدها نحو السماء مضيفة: «انظر نواه».

وشعرت فجأة أنها تريد ان تقول اسمه ببساطة لسبب تجهله وتابعت: «السماء الصافية والنجوم وصوت البحر ورائحة العشب والجبنة وعصير البرتقال».

- يبدو الأمر شاعرياً.

وجلس قبالتها يسألها: «هل أنت دوماً إيجابية هكذا؟».

أطلقت ضحكة سريعة وهي تقول: «الأمر مزعج، أعرف ذلك و. . .».

ترددت قبل أن تتابع: «زوجي السابق كان يدعوني بوليانا، أي المستبشرة. وليس من باب الإعجاب بأي حال».

استرخى نواه لذكر مارك وفكرت في أنه سمع من دون شك عن طلاقهما. فهنري الميكانيكي أو جون مديرة مكتب البريد أشاعا الأخبار طبعاً عندما علما بمكان سكنه.

- التهكم يسود أينما كان هذه الأيام، فلا تقللي من تقدير السعادة البسيطة.

ابتسمت له متأثرة بكلامه وقالت: «شكراً لدعوتي الليلة».

- شكراً لقدومك.

وابتسم لها بالمقابل قبل أن يتابع: «أحب هذا المكان ليلاً. ومن الممتع أن يكون المرء بصحبة الكبار. لا تسيئي فهمي فأنا أحب أولادي ولكن هذه الساعة من الهدوء قبل النوم. . .».

- لست مضطراً لأن تشرح لي، فأنا أعمل مع الأولاد طيلة النهار. وعادة أجلس على الشرفة الخلفية لمدّة ساعة تقريباً في مثل هذا الوقت.

ساد صمت ثقيل بينهما. شخصان يحاولان بجهد ليبدو كل واحد منهما على طبيعته، على الرغم من وجود الكثير من الأمور التي لم تقال. إنهما مجرّد غريبين لديهما الكثير من الأسرار.

قال فجأة عندما أصبح الصمت بينهما لا يحتمل: «لا يمكن أن يكون هناك تعريف أسوأ للعائلة بالنسبة لك ولعمك جو».

www.elromancia.com

ومن دون تفكير وضعت يدها فوق يده وهي تقول: «أرجوك لا تقل هذا. أنت تعلم كم استمتعت برفقة الأولاد اليوم. أما بالنسبة للعم جون فهو يعشق أن يزور أحدهم حديقة الخردة لديه، فكيف إن كان ولداً مسحوراً بالقطع التي يملكها. كان نهار سعده لأنه حظي بولد يطرح عليه كل تلك الأسئلة، وقد رحب العم جو بعودته في أي وقت».

وبدلاً من أن يسترخي ويطمئن هزّ نواه كتفيه وقال: «أظن أني سأعرف إلى أين يذهب من الآن وصاعداً، على الأقل».

سألته بلطف: «هل الأمر سيء إلى هذا الحد؟».

سكب العصير في الكوبين وهو يقول: «طالما أنه لا يزعج عمّك، فلا بأس».

شعرت أن نواه لم يكن يريد قول ذلك، لكن بعد زلة لسانها بعد ظهر اليوم علمت أن عليها ألّا تلحّ أكثر بالسؤال.

- لقد عاش العم جو وحيداً جداً منذ وفاة العمة جين قبل سنتين وانتقال أبناء عمي جميعاً إلى سيدني للعمل، وهو لا يرى أحفاده سوى مرتين في السنة. ومع أني أزوره مرّة في الأسبوع إلّا أني لست من النوع الذي يحب الخردة. أظن أن تيم سيحب الحديقة حيث سيجد ملايين الأمكنة للاختباء.

أكملت بنعومة محاولة التخفيف من أي حدّة تكمن بين طيات الكلمات الرقيقة: «لكنها دوماً آمنة».

كانت ترغب في شفاء الجرح في أعماقه، مع أنها كانت تعلم أنها لن تستطيع ذلك، وأضافت: «سيحرص العم جو على ألا يؤذي نفسه».

ابتسم لها نواه مطمئناً وكأنه شعر بمدى قلقها ثم أعطاها كوب العصير قائلاً: «هذا صحيح، هل تديرين مركز العناية بالأولاد يومياً؟».

جارته في الحديث، راغبة في التحدث عن أمور أخرى غير الأولاد الذين يحبهم ويقلق عليهم، فأومأت تقول: «حصلت على الدبلوم بعد تخرجي من الثانوية مباشرة ومن ثم درست بالمراسلة للحصول على شهادة دراسات عليا

فيما تابعت في الوقت ذاته دراستي في التمريض. كما تابعت دورة في الإسعافات الأولية. لطالما خططت لفتح مركز خاص بي لكن رسوم الإيجار ومعاملات الضمان، إضافة إلى كلفة العمال، أكبر مما أستطيع دفعه في منطقة نيوكاسل».

إنها إذاً من تلك المنطقة. وتساءل نواه في سرّه إن كانت هذه المرأة تشكل جزءاً من هذا المكان: «هل نشأت هنا؟».

- أجل ولدت وترعرعت هنا، لكن أهلي ما زالوا يعيشون في سوانسي على الشاطئ.

قال فجأة: «أهلي يعيشون غربي دورال في سيدني».

كاد يضيف أنّ هذا ينطبق أيضاً على أهل بيليندا. فهو وبيليندا درسا في المدرسة معاً، وكبرا في منازل تقع في الشارع نفسه وهما سوية منذ عمر الخامسة عشرة.

لم يرغب في تذكر بيليندا، الأمر أشبه بالركض في المكان نفسه والتعب سدىً من دون أن يؤدي ذلك إلى شيء. وقال: «إنهم يسافرون حول البلد الآن. كم يبلغ عدد الأولاد الذين تقومين برعايتهم كل يوم؟».

- أهتم بثلاثة إلى أربعة أولاد كل يوم عادة. لدي إجازة لرعاية حتى ستة أولاد ولكن بما أني وحيدة، لا أرهق نفسي. لكن هذا لا يعني أن ما من أولاد كثر في هينشكليف يحتاجون رعايتي الكاملة نظراً لأن أمهاتهم يعملن.

وضحكت مجدداً بصوت عذب وواضح.

راقبها وهي تمشي نحوه بثوبها الأبيض الرقيق، وضفيرتها تتدلى فوق أحد كتفيها، فرآها أشبه بسحر ليل البلدة. بدت وكأنها تعوم على وجه الماء وليست تمشي نحوه تحت ضوء القمر.

شعر بأنه يريدها. أراد أن يحوم حولها كالتائه وأن يشعر بفرح وسكينة الحياة بقربها. أراد أن يجلس هناك ويشبع من تأمل وجهها وأن يشعر بلمسة يدها طوال الوقت وألّا يدعها تذهب...

الابتعاد عنها في هذه اللحظة كان قاسياً جداً. لقد مضى وقت طويل منذ

www.elromansia.com

شعر بلمسة أنثوية ليلية ناعمة، لسمة امرأة تريده أيضاً.

بدا ذلك في تينك العينين الزرقاوين وفي التواء الشفتين... وطريقة لمستها له. في انقطاع أنفاسها وهي تتكلم عندما تكون قريبة منه، والرعشة الخفيفة عند أقل تلامس يحصل بينهما. كما بدا ذلك في الثوب الذي ترتديه ورائحة الفانيلا الناعمة على جلدها والعطر الذي لم تكن تضعه عندما التقيا. وفي خصل الشعر الهاربة من الضفيرة المجدولة على جانب وجهها، وفي أحمر الشفاه الذي تضعه على شفتيها، هاتين الشفتين اللتين لا تنفك ترطبهما عندما تنظر إليه.

كانت جنيفر تريده كذلك، تريده لدرجة أنها لم تعرف كيف تخفي مشاعرها.

لا يمكن لهذا أن يحدث. لن يسمح له. فآخر ما يريده هو علاقة عاطفية، وآخر ما يمكن أن يتأقلم معه الأولاد هو أم جديدة في حياتهم، لا سيما تيم.

ومع أن مغازلة الغرباء تصرّف خاطئ وأحمق إلّا أنه غازلها. وسألها: «هل أتيت إلى هنا لتؤسسي عملاً؟».

أخفضت نظرها إلى حيث لم تكن يداهما تلتقيان تماماً وتحرّكت أصابعها ببطء بالكاد تلامسان يديه بطريقة لم يعرفها سابقاً. كان يشعر بالرعب والحلاوة في آن معاً من تلك اللمسة التي تركت أعمق أثر في نفسه.

بدا تأثرها أيضاً في صوتها المخنوق الذي قال كل ما لم تقله الكلمات.

- كنت بحاجة لبداية جديدة بعد طلاقنا أنا ومارك. وكان العم جو بحاجة إلى عائلة تبقى قريبة منه، فهو سليم صحياً وعقلياً لكنه يتقدّم في السن. أتيت مرّة لزيارته ورأيت فرصة لي نظراً لعدم وجود حاضنات هنا، وانتهى بي الأمر إلى الإقامة بشكل دائم.

احتاج لدقيقة ليتذكر ماذا سألها وبما أجابت. كان ضائعاً تماماً في عالم الأعاجيب الجديد الذي اكتشفه، ومأخوذاً جداً بضربات قلبه المتسارعة، وبموجة الرغبة العميقة التي اكتسحته. ورطبت شفتيها مجدداً. ونقلت نظراتها إلى عينيه بخجل بالغ.

لم تكن لديه خبرة في التعامل مع موجة الرغبات تلك، فهو لم يعرف امرأة أخرى غير بيليندا. لقد غازل فتيات طبعاً وارتاد الحفلات لكن الأمور كانت تدور دوماً حول بيليندا. لم يكن يعرف كيف يلعب اللعبة مع امرأة أخرى.

ولا يظن أن جنيفر تعرف كذلك.

كانا هناك يجلسان معاً على بعد أمتار عدّة ويداهما بالكاد تتلامسان، مغمورين في عالم من السحر والروعة لا يجيد أي منهما التعامل معه.

ولكن من يخدعان؟ فكلاهما يعرف نوع السحر الذي يسيطر على هذا العالم، سحر لا يعرفان كيفية التعامل معه.

وشق صوتها الصمت محاولاً تجاوز كل الأحاسيس فسألته: «ماذا تفعل بالإضافة إلى تربية الأولاد؟».

أجبر الكلمات على الخروج من حنجرة شبه مطبقة وأجاب: «أنا مهندس وعامل بناء. لدي مكتب هندسة في سيدني يتكفل بكافة قضايا البناء».

ولم يضف أنه اضطر لبيع كل هذا ليدفع الديون المترتبة عليه. لم يكن الذنب ذنب بيليندا، إذ يفترض به رؤية عذابها. لكنه كان مأخوذاً بفن البناء وإدارة شؤون المكتب والمحافظة على مكانته ونجاحاته، فيما اعتمد على قوة بيليندا في تدبير شؤون المنزل وتسيير الأمور بهدوء. لقد لاحظ أنها تبالغ في شراء الحاجات لكن أحوالهما كانت جيدة فلمَ لا تستمتع بالمال؟ وإن فقدت حياتهما الزوجية بعضاً من حميميتها قبل بضعة أشهر من ولادة رودي، فقد ظن أن الوقت والصبر كفيلان بإصلاح الأمور.

لكن حجم المشاكل تجلّى بعد اختفائها... وأتت الفواتير واحدة تلو الأخرى لتسديد ثمن الملابس والأحذية وألعاب الانترنت.

قطع ضحك جنيفر حبل أفكاره بأنوثته ورقته وهي تسأله: «وانتقلت إلى هينشليف؟ ماذا ستفعل في بلدة لا يزيد عدد سكانها عن ألفي نسمة؟».

كان مسروراً لاتخاذ الحديث منحى آخر فضحك قائلاً: «أجل، ليس لديّ الكثير من الفرص هنا. لذا، فكرت في أن أؤسس مكتب تصليحات. سأؤمن تصاميم تناسب جميع أنواع المنازل كما أستطيع تأمين خدمات بناء

www.elromancia.com

منازل جديدة. ثمة مشاريع عمرانية على طول الطريق السريع جنوبي وشمالي بالينا. المكان ليس بعيداً من هنا».

وتردّد يعرف ما الذي يريد أن يسألها عنه، لكنه لم يرغب في تحميلها أي عبء. كان لا يزال يشعر بدفء يديها يعيده إلى الحياة، ويلمس جزءً منه ظن من أسبوع واحد فقط أنه مات. وتابع: «بما أن سيلا ورودي لا يزالان صغيرين جداً للذهاب إلى المدرسة، فسأعمل بدوام جزئي خلال النهار. ويمكنني وضع التصاميم ليلاً».

كانت عيناها غارقتين في التفكير فأومأت برأسها وهي تقول بتردد واضح بقدر تردّده: «أنا لدي مكان لهما في مراكز الحضانة أيام الاثنين والأربعاء والجمعة إن احتجت لذلك. أنا أدير المركز حتى الساعة السادسة إن احتجت لأن تعمل حتى وقت متأخر، وسيكون مرحّباً بتيم أيضاً إذا رغب بالانضمام إلينا بعد دوام المدرسة».

ها قد برزت أولى معالم الاتصال وها هي إشارات الخطر توضع في طريقهما وهما يركضان في طريق مسدود فوق جبل صخري. كان يعرف ذلك لكنه تابع المسير.

وبعد صمت قصير، سارعت تقول بصوت غريب وقد سحبت يدها بعصبية: «سيكون اتفاق عمل طبعاً. ليس لدي سوى ثلاثة أولاد هذه الأيام. والقسط ليس باهظاً».

ألقى يده على يدها مجدداً وهو يقول: «جنيفر... شكراً لك. كنت آمل أن أجد لديك مكاناً شاغراً. يصعب اصطحاب الأولاد أينما كان، كما اعتدت ان أفعل في سيدني. أما بالنسبة لتيم، فأعتقد أنه سيحب الأمر سيما إن لم أكن موجوداً لأزيد الأمور تعقيداً».

قالت بهدوء وهي تنظر إلى حضنها من دون أن تحرك يدها من تحت يده: «أظن أني أنا من زاد الأمور تعقيداً».

اعترف بهدوء مماثل: «أظن أن كلينا عقد الأمور».

ورفعت نظرها إليه تقول: «أعتقد أنه من الأفضل لتيم لو أعود إلى

منزلي. أظن أن كل منا لديه ما يكفي من الأشباح للتعامل معها».

كان يتوق لأخذها بين ذراعيه وضمها بقوّة إلى صدره والشعور بالأمان والدفء بقربها والضياع في رائحة عطرها وبين طيات ثوبها، لكن كل ما استطاع فعله هو هز رأسه. كان يعلم أنها محقة، لكن سماع كلماتها ملأه بالحزن. أراد ما أرادته، لكنه كان ممنوعاً من أيّ شعور طبيعي بين أي رجل وامرأة. هل سيتوقف يوماً عن دفع الثمن ويمضي بضعة أشهر في عالم من العواطف الهوجاء؟

همست دون أن تسحب يدها: «عليّ الذهاب».

- أبي!.

قفز نواه على قدميه، وقال بحدّة: «إنه تيم!».

- أبي! أبي!.

اندفع نواه إلى داخل المنزل بسرعة مجتازاً المطبخ والقاعة نحو الغرفة الزرقاء الكبيرة التي يتشاركها تيم ورودي. ومع أن المنزل كان مؤلفاً من أربع غرف نوم، إلّا أن تيم لا يحب أن ينام وحيداً.

- لا بأس يا صغيري، أنا هنا.

ورفع الولد الباكي بين ذراعيه يحمله بحنان. هذه هي الأوقات الوحيدة التي يسمح فيها تيم لنواه بدخول مساحته الخاصة. همس ببعض الكلام ليريحه وأخذ يمرّر يديه على شعره المشعث. كان تيم يرتجف مرتعباً فحمله نواه وهزّه يدرك مجدداً لما يعيش وحيداً، متوجعاً، مسجوناً في حسرة أب مستعد لأن يقدّم أي وعود تجعل الولد في حال أفضل، ولو لساعات قليلة.

همهم الولد ضائعاً في عالم بين النوم واليقظة: «أبي».

كان الخوف يرافقه ليلاً نهاراً، إنه الخوف الذي يجعله منفصلاً عن بقيّة أولاد المدرسة، ومختلفاً عنهم. فما من أم أخرى اختفت. لو أن بيلندا ماتت لتقبل الوضع الآن وتخطاه وبدأ يشفى منه، لكن ما من مكان يقصده المرء حين تكون أمه مفقودة. لم يكن هناك من نهاية أو حدّ أو شفاء، بل ألم لا ينتهي ورعب لأنه يشعر أنه السبب في عدم رغبتها في العودة.

وهذا عبء ثقيل يحمله ولد في عمره.

- أنا هنا يا صغيري وسأكون دوماً بقربك.

لكنه لم يصدق وعده كما لن يصدقه ابنه، فهشاشة الحياة درس قاس تعلماه وحفظاه تماماً.

فالوعود تنكث بسهولة، وقد أثبتت بيلندا ذلك.

قال تيم وهو يدفن وجهه في كتف نواه ويبكي بمرارة: «دعها ترحل أبي...».

تنهد نواه وهو يعرف هذه المرّة أنه لن يتمكن من قطع هذا الوعد وقال: «لا أستطيع يا صغيري».

وأحس بالألم في حنجرته فقبّل جبين ابنه وتابع: «إنها جارتنا وستهتم برودي وسيلا بينما أكون في العمل».

عاد يبكي وهو يحاول أن يقول: «لا، أبي. لن تعود أمي مطلقاً إذا، إذا...».

لم يتمكن تيم من قول الكلمة، لم يستطع إنهاء الجملة.

تألم نواه وشعر بالذنب، لأنه لم يتمكن هذه المرّة من أن يقول إنه لا يريد هذه المرأة أو إنها لا تعجبه، المرأة التي تسبب القلق للولد. ومهما حاول جاهداً فلن يتمكّن من أن يكذب على ابنه، لأنه يريد جنيفر فعلاً وسيظهر ذلك في كل مرّة يراها فيها. أرادها الآن، في حين أنه يجب أن يكون مستاءً من انشغاله بها حتى في أسوأ الأوقات.

والأسوأ من ذلك كله أنها تعجبه، وكان تيم يعرف أن الخطر هذه المرّة حقيقي. فأجهزة الاستشعار لدى تيم المكرّسة لمراقبة أبيه أدركت وجود الخطر حتى قبل أن يكتشفه نواه.

لم يجد ما يقوله ليطمئن ابنه ويخلّصه من كوابيسه ومخاوفه التي ستدوم وتدوم.

ونبّهه حدسه إلى وجود شخص ما فالتفت.

كانت جنيفر تقف بالباب، وقد التمعت الدموع في عينيها. كانت تغطي

فمها بيد مرتجفة وهي تنظر إلى تيم. ورفعت نظرها إلى نواه ببطء فلم يستطع أن يتحرّك أو يتنفّس. شعر بحاجتها للاقتراب ومساعدتهما معاً، لكنها إن فعلت فسيعرف تيم أنهما كانا سوياً ولن يشعر بالأمان مجدداً.

لم تكن بيدها حيلة. وانتهى الأمر قبل أن يبدأ حتى. لقد لامسا نيران الشوق وها هي الآن تحرق طفلاً بريئاً.

ومن دون أن تصدر صوتاً اختفت لتترك وراءها الحزن والندم.

كانت جنيفر تجلس على البساط، تشرب كوب العصير الثاني عندما عاد. وقف على بعد أمتار منها ينتظر منها شرحاً يفسر سبب وجودها. وشعرت بأنها حمقاء، فلِمَ لم تذهب إلى المنزل بدلاً من الجلوس هنا واحتساء العصير الذي جلبه؟ سألته أخيراً وهي تسمع الارتباك في صوتها: «هل هو بخير الآن؟».

أجاب بخشونة: «كلا، إنه ينام في سريري. أتيت فقط لأجمع الأغراض.».

- سأفعل ذلك.

وطوت الغطاء، فقال لها بهدوء: «كلا جنيفر، أرجوك اذهبي فقط. فإن استيقظ وخرج إلى هنا...».

أومأت برأسها تشعر بمزيد من السوء وقالت: «أردت فقط أن أعرف أنه...».

يا له من أمر مربك! كل فترات الصمت تلك. يقولان كل شيء عدا الأمور التي يحتاجان لقولها.

- لن يكون بخير حتى تعود بيلندا أو يتم العثور على جثتها.

خرجت الكلمات دفقاً من فمه، وتابع يقول: «ليس الأمر كما عند الوفاة. إن حياتي مقطعة وكذلك حياة تيم وسيلا ورودي».

مسح وجهه بيده، وكأنه يدفع باليأس والحزن عن ملامحه.

- ما من مكان نذهب إليه أو نقصده. بالنسبة إلى تيم، الشفاء يعني الخيانة، حتى أن الانتقال إلى هنا يجعله يشعر وكأنه تقبّل موتها. كيف لي أن

أخبره أنه مخطئ في الاستمرار بالأمل وبالبحث عنها في كل سيارة أو حافلة أو قطار؟ كيف لي أن أقول له «إنها ليست أمك» كلما رن الهاتف وركض للإجابة؟ أعرف أنه أخبر سيلا أنّ علينا أن ننتظرها وننتظر أخبارها أو أي شيء يسمح لنا بالعيش من دون أمل وخوف وشعور بالذنب يتآكلنا ونحن أحياء؟.

ابتلعت دموعها، لكنها تنوق لضم هذا الرجل إلى صدرها، لتدعه يعرف أنه ليس مضطراً لأن يشعر بكل تلك الوحدة الممزوجة بكل ذاك الألم... وأنها كانت تتفهمه أكثر مما يستطيع أن يدرك.

لكن لمسه من المحرّمات، فأغمضت عينيها على منظر هذا الرجل الوسيم المعذّب وقالت: «كان عليّ أن أذهب إلى المنزل... لكني كنت قلقة».

- بعد ما سمعته، يجب أن تكوني قلقة من جراء سكنك بالقرب من مجموعة من القضايا الشائكة. أنا آسف جنيفر.

مسح وجهه مجدداً بيده متابعاً: «لعل التحدث أراحني، لكنك لم تكوني بحاجة لسماع كل هذا».

قالت بهدوء تمنحه كل ما تستطيع: «لعلك كنت بحاجة لقول ذلك».

كانت عاجزة عن ضمه إليها بسبب حقيقة بسيطة وهي أنها معجبة حتى العظم بهذا الرجل، ولمسه ولو بشكل طفيف خطير جداً. أردفت تقول: «لعل التحدث إلى شخص غريب يُشعر بالنقاء».

تمتم وهو يحدق فيها: «ربما، لكنك لست غريبة».

أومأت برأسها ببطء، متقبّلة التأنيب والخطر. لم يكونا غريبين، لكن لن يستطيعا أن يكونا سوى كذلك.

- جنيفر.

رفعت نظرها إليه ببطء تحت تأثير حدّة صوته.

لم ينظر إليها بل بدا اهتمامه مركزاً على توضيب الأغراض وهو يقول: «حتى لو كانت بيليندا ميتة وأظنها كذلك، لم يتبق لدي ما أعطيه. لعلك لا تستطيعين أن تفهمي هذا...».

كان سماع هذه الكلمات مؤلماً رغم أنها تعرف كل الأسباب التي تجعلها هي أيضاً غير قادرة سوى على إعطاء القليل، والسبب الذي يجعل الارتباط بينهما مستحيلاً.

وقالت برقة: «إن لم تستطع أن تقيم علاقة جيدة مع أولادك، فلن تشفى مهما حاولت جاهداً وسيقتلك ذلك رويداً. لكن لا يمكنك أن تتوقف عن الأمل والمحاولة. وليس أمامك من خيار سوى وضعهم في المرتبة الأولى حتى وإن شعرت بأنك تفسدهم بكثرة الدلال أو أنك تعدّ لنفسك مصيبة ستقع فيها».

وابتسمت ثم هزت كتفيها. وقبل أن يتسنى له أن يسألها كيف تعرف كل هذا أعطته سلة الأغراض التي لم تكن تدرك أصلاً أنها تحملها واستدارت تقول: «اجلب سيلا ورودي عندما تكون بحاجة لأن تعمل مهما كان اليوم، ومن دون علم مسبق».

جنيفر...

في العتمة، امتدت اليد الصلبة السمراء وتاقت لأن تلمسه لمرة واحدة وأخيرة.

وتناهى إليهما صوت تكسّر الأمواج. كان المدّ عالياً يهاجم الجدران الرملية في الأسفل.

هزّت رأسها وحاولت الابتسام: «من الأفضل ألا تفعل».

نظر إليها بعمق وحدّة وقال: «لا أستطيع أن أكلّفك بالأمر دون مقابل. هذا ليس من طبعي».

فأكدت له بهدوء: «لن تفعل، ستدفع الجزء الأكبر. إني أدخر بعض المال لتوسيع الشرفة والحصول على منزل صغير للأولاد، منزل يمكن نقله».

احمرّت وجنتاها وهي تقول ذلك من دون أن تعرف السبب وتابعت: «فكرت في بيع منزلي والانتقال إلى وسط البلدة لأكون قريبة من الأولاد، أعني معظم الأولاد...».

فقال بصوت أجش: «كلانا يعلم أنك ما زلت من يتحمّل القسم الأكبر

هنا. لذا سأصمم الشرفة والمنزل وأبنيهما لك. أنت ستدفعين ثمن المواد أما أجرة البناء فسأتحملها أنا بينما تقومين برعاية الأولاد. أحتاج لأن أمارس مهنتي من جديد، والله يعلم إلى أي حدّ أريد ذلك. سيكون ما أبنيه بمثابة إعلان لي».

ولم يظهر على ثغره طيف ابتسامة وهو يتكلم.

سمعت المرارة في صوته ولم تتمكن من لومه، فنهاره كان حافلاً بما قد يوصل أي شخص عاقل إلى حافة الجنون. وقالت: «إن كان الأمر سيخدم كلينا، فكل ما أستطيع قوله، شكراً لك نواه».

هذه المرّة ابتسم وكأن ابتسامته تلك حطمت جدار العزل الذي حاولت أن تبنيه وتابع: «وإذا حصلت على أي عمل مهم في تلك الأثناء...».

كانت تعلم ما لا يستطيع قوله، فأومأت برأسها وقالت: «بالطبع، فلديك عائلة تحتاج دعمك. ولا بأس إن أنجزت لي العمل بعد دوام عملك الخاص أو قبله. وسيكون الأولاد معك في هذا الوقت. سنتقاسم مهمة إعداد العشاء، فأطهو أنا ليلة، وفي الليلة الأخرى تجلب أنت الطعام الجاهز».

قال لها بصوت أبح مثقل بالامتنان، صوت رجل حمل أعباء العالم لفترة طويلة: «شكراً لك جنيفر، لا أعرف ماذا أقول...».

وعلى الرغم مما حصل. ظلت تفكر في ما قد تخسره فيه كحبيب واحمرّت وجنتاها: «علي الذهاب، عمت مساءً نواه».

وظهرت المستبشرة مجدداً، تسخر منها وهي ترحل من دون أن تنظر إلى الوراء.

كانت تجلس وحيدة تستمع إلى صوت أمواج البحر. بعد سنتين من الضياع ها هي الآن تشعر بأنها حيّة من جديد، وكان الأمر مؤلماً. والأسوأ هو أنه لم يكن لديها أي خيار إلى أن تتمكن من تغير شخصيتها. لم تشأ إيذاء أولاده الرائعين أو زيادة معاناته.

إنها العاطفة مقابل الضمير، والحاجة مقابل الأولاد. كلا، لم يكن لديها

خيار. وهي تعلم أنه مهما كان الثمن الذي ستدفعه مقابل قرارها، فستفعل بوعي كامل.

وظل لديها أمل.

www.elromancia.com

٤ - شطحة خيال

بعد ستة أسابيع.

- جيني، جيني، نحن هنا!.

وفيما هي ترتشف قهوتها، وجدت نفسها تبتسم لمقاطعة رودي لعادتها اليومية. في العادة، هذا الوقت وقتها الهادئ الخاص قبل وصول الأولاد، لكن تيم وسيلا ورودي ليسوا مجرد أولاد آخرين. ما الذي يشدها إليهم إلى هذا الحدّ؟ ليتها تعلم! كانت تحب جميع الأولاد الذين تقوم برعايتهم لكن أولاد آل برانيغان اخترقوا جدار الحماية الذي تغلّف به قلبها. ربما لأن العائلة تحتاجها إلى حدّ كبير.

أولاد برانيغان بالذات يحتاجونها إلى حدّ كبير. أما نواه فيحتاج فقط إلى مهارتها في العناية بالأولاد.

وعدا عن الأيام التي كان يحضر فيها لأخذ الأولاد، لم يزرها سوى مرتين في الأسبوع على مدى الأسابيع الستة الماضية، كي يريها التصاميم. كما اتصل ليخبرها أن المجلس البلدي وافق على تصاميمه ومرّة أخرى ليخبرها أنه سيبدأ العمل اليوم.

كان يقطع أجزاء منزلها الصغير ويجمعها في الحديقة، وسيجلبها حين ينتهي منه. أخبرها بصوت أجش: «فكرت في أنه سيكون مشروعاً مشتركاً مع تيم».

لم تعرف ما إذا كانت النبرة الغريبة في صوته ناجمة عن أنه يلجأ إلى عذر ليتفاداها أو لأن تيم يرفض ان يدق مسماراً واحداً بوجود أبيه.

لم يعد يهرب كثيراً. فعل هذا مرتين فقط منذ التقيا...

لم تغتر بنفسها وتعتبر أن عدم هروبه يعود إلى تأثيرها القوي. لكنها تمنت لو تعرف السبب.

ظهر رودي في المطبخ فجأة تعلو وجهه ابتسامة عريضة مشرقة وكأنه واثق من الترحيب الذي سيحظى به. وركض مباشرة ليرتمي في حضن جنيفر بالثقة ذاتها التي أظهرها في اليوم الأول للقائهما. كان يعلم أنه محبوب وسألها: «أنا هنا! هل أنت سعيدة لذلك؟».

ضحكت جيني وهي تضمه إليها وتقول: «بالطبع سعيدة جداً».

كان دوماً يعلّق على الأمور بوضوح ويكرر الكلام ذاته كل يوم.

- هل أنت جائع؟.

هزّ رأسه بنعم، ومع أن جنيفر كانت واثقة من أن نواه أطعمهم جميعاً قبل إحضارهم إليها إلّا أنها قالت: «الخبز المحمّص مع الجبنة!».

وعانقته مجدداً ورفعت سيلا إلى جانبها الآخر وقبلتها بحرارة قبل أن تجيب: «آسفة صغيرتي، ثمة ثلاثة أولاد آخرين سيأتون قريباً».

أعطته الجبنة وكان لديه الكثير ليخبرها به لكن لم يكن لديها ما يكفي من الوقت للاستماع إليه.

وتذكرت اللقب الذي قال تيم إن نواه أعطاه لرودي وهو الطفل الدائم الإزعاج. وتساءلت في سرّها عما إذا هدأ بشكل طبيعي أم أن الحاجة أجبرته على ذلك.

تيم وسيلا يحتاجان إلى مزيد من الرعاية والاهتمام. أما هو فبدا طفلاً سعيداً بطبيعته لكنها كانت تبقي عليه عيناً تحسّباً.

دخل تيم من الباب وهو يظهر حذراً أكثر من بقيّة الأولاد فقالت: «ماذا عن بعض الفاصوليا والجبنة مع الخبز المحمّص؟».

كانت تلك وجبة تيم المفضلة، لكن رودي اعتاد التشبّه به على الأقل حين لا يكون غاضباً.

كشّر تيم وأومأ قائلاً: «شكراً».

أصدرت سيلا صوتاً ناعماً، فابتسمت لها جنيفر تخفي الحنان الذي تشعر

www.elromancia.com

به تجاهها. بعد ستة أسابيع لا تزال الصغيرة تفتقر إلى الشجاعة لطلب ما ترغب فيه، وقالت لها أخيراً: «والشوكولا والموز المهروس لسيلا طبعاً».

وكانت ابتسامة الفتاة المشعة هدية كافية.

طرق نواه الباب بتهذيب وقال: «صباح الخير جنيفر».

أجابته بتوجّم وتهذيب مماثل: «صباح الخير، نواه».

حاولت ان تبتسم بشكل طبيعي لكنها إن فعلت فسيبتسم لها وستنسى نفسها وسيلاحظ تيم ذلك.

- انتهيت للتو من تحضير القهوة، فهل تود فنجاناً؟

عرضت عليه ذلك فيما هو يتوجه نحو الباب الرئيسي يضع عليه الشريط اللاصق في إشارة لفصل الشرفة عن بقية المنزل.

استدار نواه نحوها وقال: «شكراً لك».

بذلت جهدها لئلا تشهق فتيم ينظر إليهما وتذكرت الليلة التي أمضياها معاً تحت ضوء القمر والتي وستكون كل ما تشاركه به. وتذكرت ابتسامته النادرة ولمسة يديه في وعد غير معلن...

وضعت سيلا بعد أن طبعت قبلة رقيقة أخرى على وجنتها، ووضعت رودي في الكرسي المرتفع وثبتته وهي تقول: «سأهتم بالأولاد أولاً».

ابتعدت وكأنه مجرّد أحد الآباء الذين أتوا ووضعوا أولادهم تحت رعايتها، أو مجرّد نجار يعمل على بناء منزلها. إعجاب مجنون وانجذاب غير مرغوب فيه.

لكن لماذا تشعر دوماً وكأنه قادر على هدم سنوات من الاكتفاء الذاتي بمجرد نظرة منه أو ابتسامة أو من دونهما حتى.

قال لها حارس نواه الشخصي وهو يقف أمامها منتظراً متأهباً: «جين، تفضلي حبوب الفاصوليا».

رمقت تيم بنظرة وابتسمت له وهي تقول: «أنت مساعد مفيد».

وشعرت بعطشه للمسة أم وخوفه من ذلك وكرهه له في الوقت ذاته. يا له من رجل صغير مسكين يحتاج لأم أكثر من سيلا ورودي! لكنه حرم نفسه

من متعة الحصول على ضمّة بسيطة لمجرّد أنها امرأة وهو لم يعد لديه سوى العهد الذي قطعه لبيليندا. وأعدت طعام الفطور وهي تشعر بأنها ستبقى مجرّد مربية أطفال...

* * *

لا يزال موعد احتساء القهوة بعيداً.

تمتم نواه بكلمات لا يستعملها أبداً أمام أولاده وهو يرفع ألواح الخشب مسروراً لقيامه بعمل جسدي متعب. كان عليه أن يرهق نفسه ليسكت الصراخ الذي في أعماقه، والهمس الذي في قلبه.

كل مرّة يراها فيها، بوجهها الجميل ورقّتها ورشاقتها التي تملأ مسامه كلها بنغم كأوتار الغيتار، كان يشعر بعطش الرجولة في أعماقه يستيقظ. وعندما يذهب لاصطحاب الأولاد ويراها تقبّلهم وتعتني بهم فيما الحواجز التي لا يمكن تجاوزها أو اختراقها تبقى مرتفعة بينهما كان يتألم ويحترق من الداخل.

وفي الليل كان يعيد إحياء تلك الليلة تحت النجوم حيث لم يحدث شيء بينهما في حين بدا كل شيء ممكناً، بمشيتها نحوه بثوبها الأبيض وخصلات شعرها المجعد المتطايرة على وجهها بعد أن هربت من ضفائرها. كان مجرّد التحدث إليها ورؤيتها متعة.

كان يصحو معظم الليالي متعرّقاً، على الأقل حين لا توقظه كوابيس تيم. لا عجب في أنه يبدو عصبياً هذه الأيام جرّاء قلّة النوم.

كان تيم بالكاد يحدّثه هذه الأيام لكنه لا ينفك يراقبه.

لم تكن لديه أدنى فكرة عن مشاعر جنيفر تجاهه. بدت بغاية الهدوء وراحت تعامله كأي والد آخر فتقدّم له القهوة تماماً كما تفعل مع الأمهات الأخريات اللواتي يجلبن أولادهن، بل أسوأ! كانت تعامله كما تعامل عمّها.

أطلق إحدى الشتائم حين اخترقت شظية خشب قفازه وانغرزت في إبهامه.

- نواه؟.

سمع القلق في نبرة صوتها لكنه تجاوب معها برفض مطلق وقال: «أنا بخير».

- تفضل قهوتك.

اختفت الرقة من صوتها وباتت تتحدث بطريقة عادية، عادية جداً. رفع نظره إليها فرأى ابتسامة هادئة تعلو وجهها بتصميم وإرادة. كانت قادرة على المحافظة على حسن السلوك ما يجعله يشعر أنه مجرّد تلميذ توبخه المعلمة أو مجرّد أحمق.

مدّ يده ليأخذ منها الفنجان لكنها وضعته بجانبه.

- جنيفر...

بدأ كلامه معتذراً، منزعجاً لنبرة صوته الأبح عند ذكر اسمها.

رغب في لمسها ولو للحظة. واشتدت أعصابه لاستحالة قيامه بهذه المغامرة.

استدار مبتعداً وهو يقول: «لدي بعض الأعمال أقوم بها اليوم. سأكون خارجاً حتى عودة تيم من المدرسة فهل يناسبك أن أعمل على إنجاز الشرفة من الساعة الرابعة حتى حلول المساء؟».

- طبعاً.

وتحوّلت نظراتها إلى يده اليمنى وإلى شظية الخشب العالقة بإبهامه وأضافت: «سوف أحضر مطهراً وملقطاً لاستخراجها، سأرسلها مع تيم».

قال لها بصوت خشن ممتعضاً من المسافة بينهما: «على الأمور أن تجري على هذا النحو جنيفر».

عادت تنظر إليه للحظة من دون أن تلتقي أعينهما فعلاً وتنهدّت قائلة: «أنا لا أناقش هذا الشأن. عليك الدخول، لقد طلبت من تيم الاهتمام بالأولاد بينما أحضر لك القهوة وهذا ليس من عادته. كما لن يطول الوقت قبل وصول باص المدرسة».

وقطبت جبينها وأمالت رأسها قليلاً.

فقال بهدوء: «إنه يراقبنا من النافذة».

لم ترتكب خطأ الالتفات إلى تيم وقالت: «بذهابك سيطمئن، أليس كذلك؟».

طار قفاز يده اليسرى وهو يرميه على الأرض بعنف، وسحب الشظية من إبهامه بقسوة متمنياً لو يعرف حقيقة شعورها. ليتها تعود إلى الداخل قبل أن يرتكب عملاً أحمق!

- الأمر لا يتعلق بك وبتيم فقط، كما تعلم.

صدمته حدّة الجملة ورفع نظره إليها مجدداً. كانت تقف بقبضتين مشدودتين وخصلة شعر متجعدة تتراقص فوق وجهها مع نسيم الصباح الدافئ. كانت جميلة بوجنتيها المتورّدتين وعينيها اللتين تشعان غضباً. وتاق لإزاحة تلك الخصلة عن وجهها. كان حاله سيئاً لدرجة أن مجرّد لمس شعرها كاف ليوقد ناره ويوصله إلى حافة ارتكاب عمل أحمق. وسألها بخشونة رداً على كلامها، خشونة مصطنعة يغطي بها توقه المثير للشفقة: «ما هو الأمر إذاً؟».

أزاحت خصلة الشعر عن وجهها لكنها عادت تتراقص مجدداً فدسّتها وراء إحدى أذنيها وقالت: «لا تحتاج لأن تعرف، فلست سوى والد ثلاثة أولاد صادف أني وقعت بحبهم بجنون».

هكذا وببساطة، قالت الحقيقة وحسب كما تراها هي وليس كما تشعر بها أو تريدها. لم يكن يعرف لما جعلته الحقيقة يفور كالبركان، لكنه وقف على قدميه متوجهاً نحوها من دون تفكير مستعداً لمواجهتها وإثبات أنها تكذب.

حركة ما عند النافذة جعلته يتجمّد في أرضه.

وصاح يقول من دون أن يعرف ما الذي يغضبه أكثر: «إذاً لِمَ قلت ذلك إن لم تشائي إخباري؟».

ارتفع أحد حاجبيها وهي تتأمل غضبه وإرباكه الواضحين وقالت: «كي تكف عن الاعتذار. لدي أسباب تمنعني من إدخال رجل آخر إلى حياتي، ولن أزعجك».

أدارت وجهها عنه، لكن هذا لم يمنعه من رؤية الرغبة في عينيها، وتابعت: «لا تقلق! لن أتحرش بك ولن أجعل من نفسي أضحوكة».

لن أزعجك! مجرّد وجودها أمامه بكل جمالها ورشاقتها وجاذبيتها يزعجه. كل ما يتعلق بها يدفعه إلى حدّ الجنون.

- سيصل الباص في أي لحظة.

أعلن تيم هذا من النافذة. لعن نواه غباءه، إذ لا بد أن تيم سمع كلامهما.

نظرة سريعة كانت كافية لتظهر أن تيم أزال الشريط اللاصق وفتح النافذة ليستمع إلى حديثهما. فقال له نواه ببطء مشدداً على سلطته عليه: «من فضلك أعد وضع الشريط اللاصق يا تيم ولا تنزعه مجدداً. قد تعرّض بقيّة الأولاد للخطر إن لم يتمّ الفصل بين مكان عملي وداخل منزل جنيفر. إذا أردت الاستماع إلى حديثنا فيمكنك المجيء إلى هنا والتصرف بنزاهة».

- أجل أبي.

لم ينظر تيم كثيراً إلى والده لكن صوته كان مليئاً بالثقة حين أدار وجهه نحو جنيفر. إنها الثقة التي استحقتها من دروس الطهو ولعبة الحروب بواسطة فراشي التلوين وتأمين طعامه المفضل، وعدم النظر إلى نواه مطلقاً بعيون الرغبة. وقال لها أخيراً: «الأولاد يشاهدون التلفاز، هل أستطيع الذهاب جين؟».

- طبعاً تيم، شكراً للمساعدة.

كان صوته دافئاً بقدر صوته. إنه الاحترام المتبادل الذي يفرضه المجتمع والذي عززته جنيفر بفضل إعلانها الصريح بأنها لن تلاحق الرجل الذي يعتبر مصدر أمانه الوحيد. كان تيم يحبها وسيلا وورودي يعشقانها وكانت هي تحبهم جميعاً فيما ظل هو خارج اللعبة.

لم يعد نواه ينظر إليها فقد كانت الحياة قاسية جداً معه. ولم يكن يحتاج للإجابة التي تملك من المنطق بقدر ما تنطوي على الاستحالة وتذكره بكل ما لا يستطيع الحصول عليه: «لا تزعجي نفسك بإحضار الملقط فقد انتزعت

الشظية. شكراً».

كان يستحيل ألا تلاحظ برودة نبرته.

* * *

تمتمت والدة جايسي بعد ظهر اليوم التالي وهي تحدّق من النافذة الخلفية: «يا إلهي».

كانت الأم الأخيرة لذاك اليوم لكن هذا هو الحال أيضاً مع الأمهات الأخريات.

كانت تحدّق في نواه وكأنه مخلوق غريب جميل...

تحت أشعة الشمس الغاربة كان نواه يقطع الأخشاب ويرميها خلفه. ولم يكن يرتدي سوى سروال جينز وحذاء طويل الساقين للعمل، فيما صدره العاري الأسمر وذراعاه القويتان العاريتان تلمع تحت نقاط العرق.

كانت خصلات شعره تلتمع تحت أشعة الشمس التي أضفت عليها لوناً أشبه بالنار.

تمتمت كايت وهي تتمعّن في المنظر الذي كات جنيفر تتفاداه طيلة الساعة الماضية: «جين، أنت فتاة محظوظة».

وتابعت: «كيف يمكن لك أن تكوني جارته، وتعيشين بقربه ليل نهار ولا تغرمي به حتى أذنيك؟».

أومأت لها جنيفر بعصبية لتسكت ونظرت سريعاً إلى حيث كان تيم يشاهد إعادة أحد البرامج التي يحبها، فيما جايسي تجلس في حضنه وسيلا وورودي يلعبان بالورق.

كشّرت كايت بقلّة حذر وحياء: «هيّا، أيتها الفتاة، هل فيك نبض حي؟ هل أنت عديمة الشعور؟ لا يمكن أن أصدق أنك لا تمضين ساعات النهار وأنت تراقبينه وتتأملين».

ورفعت حاجبها تقترح: «أعدّي لي القهوة وأخبريني كل شيء. لو لم أكن سعيدة مع نيك...».

كم من مرّة عليها أن تحتمل الكلام نفسه؟.

بعد أن ودّعت كايت وجايسي تنهّدت جنيفر عميقاً. لم تعجز عن إيجاد الكلمات المناسبة كي تسدّ الأفواه وتتصدى بها للفضوليين؟

كل من في البلدة كان يعتقد أنهما حبيبان. وكل منهم كان يملأ مخيّلتها بأحلام يقظة لم تستطع إزالتها من رأسها.

كانت جنيفر مسمّرة في أرضها تماماً ككايت وآني وأولغا وكل امرأة أخرى لها قلب ينبض. بدا بغاية الروعة والقوة من خلال شباك النافذة الملوّن. كان جماله المليء بالرجولة يقطع أنفاسها ويؤذيها.

حاولت أن تحسن التصرف، فلم تستطع سوى أن تسترق بضع نظرات فيما الأولاد يلعبون وهي تخيط اللحاف. كل نظرة مسروقة إليه تجعلها تشعر وكأنها لصّة في بيتها، لكنها لم تتمكن من أن تردع نفسها من النظر إليه مراراً وتكراراً. كان عليها أن تضع حدّاً لذلك والآن!.

غرزت الإبرة في اللحاف وطوته ووضعته بعيداً عن متناول الأولاد معلنة: «نلعب الغميضة قبل حلول الظلام».

صرخ رودي وسيلا وقد قفزا عن الأرض بعد أن رميا أوراق اللعب، وركضا نحو باب الحديقة الخلفية: «رائع!».

نظرت إلى تيم الذي يشاهد إعادة أحد البرامج الفكاهية، وتعمّدت الابتسام بمكر. لم تستطع أن تقول له إنها اقترحت هذه اللعبة من أجله فقط إذ كانت تأمل يائسة أن تثنيه ممارسة هذه اللعبة بشكل متكرر عن الاختفاء هرباً من صعوبة الحياة. قالت له: «إن كنت ستبقى هنا فسأجدك سريعاً تيم، وسيسخر منك رودي طوال الليل».

ضحك تيم وركض نحو الباب.

بعد أن عدّت ببطء وبصوت عالٍ حتى العشرين مشت إلى الباب الخلفي تنادي: «أنا آتية للعثور عليك».

كانت تقول ذلك بطريقة تجعل رودي يقهقه دوماً.

كانت تحرص دوماً على جعل تيم أو سيلا يربحان. أما رودي فلا يهتم كثيراً للأمر على ما يبدو، إذ كان يحب إنهاء عملية البحث معها. وقد قال لها

مرّة: «تيمي يجب أن يربح».

حينذاك، انتابها شعور بالذهول، فتمتّع ولد في الثالثة من عمره بمثل بعد النظر هذا حيال حاجات أخيه، شهادة على حسن تربية نواه للأولاد. كما أن شفاء سيلا ورودي السريع كان بفضل نواه أيضاً. وقد أذهلها مدى جهل نواه لروعته كأب.

ونادت مجدداً: «أنا آتية للعثور عليك».

وسمعت قهقهة من أمام المنزل. كررت النداء مجدداً وابتسمت وهي تسمع ضحكة تكبتها يد صغيرة. ركضت حول المنزل القديم وسارعت إلى مكان اختباء رودي المفضل خلف نبتة الغاردينيا عند زاوية المنزل الأمامية، ثم انقضت عليه تدغدغه وتقول: «ها قد وجدتك».

قهقه رودي بفرح وهمس لها بصوت مرتفع: «لنجدهم!» ودسّ يده في يدها.

قاومت رغبتها في تقبيل اليد الصغيرة، وركضا في الحديقة على وقع خطى الصغير وهما يصرخان: «نحن آتيان لإيجادكما!».

عندما اقتربا من حيث كان نواه يبني الشرفة استدار نحوهما وابتسم فيما أشعة شمس المغيب تنير وجهه بألوان ذهبية.

انقطعت أنفاس جنيفر وعلقت قدمها بأحد جذور النباتات فتعثرت. ساعدتها سرعة بديهتها على التقاط رودي بحيث وقع عليها على العشب.

قهقه ضاحكاً وقال لها: «أعجبتني هذه اللعبة أيضاً».

ضحكت بدورها وهي تقول: «وأنا أيضاً».

- أظن أنها أعجبتني أيضاً.

كان صوته قريباً... قريباً جداً. وعندما التفتت نحوه وآثار الضحك لا تزال في عينيها رأته يبتسم لهما.

ورفعها لتقف على قدميها.

عندما وقفت على قدميها وجدت نفسها تنظر مباشرة إلى صدره العاري الأسمر الذي لا يبعد عن يديها سوى بضع سنتمترات قليلة. كانت رائحته

مزيجاً من رائحة التراب والعشب والخشب، رائحة رجولة مغرية. وكان العرق يتصبب على جلده اللماع.

تسارعت دقات قلبها وانحبست أنفاسها ولم تجرؤ على النظر إليه وإلا جعلت من نفسها أضحوكة. لكنها لم تستطع المقاومة، فوجدت نفسها تنظر إليه لثوان...

وسرى تيار جميل ومستحيل من الألم بينهما...

- هلا ذهبنا لإيجاد تيمي وسيلا الآن؟.

أعادها السؤال المليء بالأمل من شطحة خيالها فهزت رأسها. لم تستطع التنفس أو التكلم بشكل طبيعي. كل ما استطاعت القيام به هو الابتسام لرودي والإيماء.

تراجع نواه خطوة إلى الوراء ولم ينطق بكلمة واحدة، بل لاح طيف ابتسامة على ثغره.

شعرت بأن قدميها لا تحملانها وهي تأخذ بيد رودي مجدداً وتتوجه إلى الناحية الأخرى للمنزل. واستدار نواه متوجهاً نحو الشرفة مرتعباً وهو يشكر الله على أن تيم لم يشاهد ما حصل. ويشكر الله على تدخل رودي في الوقت المناسب وإلا لعانقها في تلك اللحظة...

علم نواه أن عليه أن يجهد نفسه حتى الإرهاق في الساعات القليلة المقبلة، إذا أراد أن يحصل على قسط من النوم تلك الليلة.

٥ - مأساة الماضي

دخل تيم إلى المنزل من دون سلوكه العدائي الذي يوتّر جو العائلة وعلم نواه ما سيقول مسبقاً.

- وصلتك إحدى الرسائل الكبيرة أبي.

اعتاد الأولاد أن يتركوه يقرأ تلك الرسائل وحده. كانوا يعلمون كيف تسير الأمور يوم يتلقى إحدى «الرسائل الكبيرة»، لكنهم لا يعرفون ما هي تلك الرسائل ولماذا تأتي.

حمل المغلّف إلى المطبخ، وجلب عصيراً منعشاً من البراد، فهو يعرف أنه سيحتاجه. المكالمات الهاتفية تحمل دوماً أخباراً جيدة إذ قد تقود إلى بيلندا أما الرسائل فتحمل السوء دوماً.

«عزيزي السيد برانيغان،

نعلمك بكل أسف أننا وجدنا المرأة المطلوبة ويستحيل أن تكون زوجتك. تدعى ساندرا لانغتري وتعيش في منزل صغير في بوردووتر ناشونال بارك مع عائلتها المؤلفة من أربعة أولاد...».

غامت الكلمات أمام عينيه.

انتهى الأمر. كان هذا بصيص الأمل الوحيد في الأشهر الثمانية عشر الماضية ولم يؤد إلى أي مكان.

لقد ظلت أجزاء حياته المبعثرة في مهب الريح وظل الوضع مفتوحاً على كافة الاحتمالات. وعادت رياح الشك والهجران تعصف مجدداً، وعاد الشعور بأنه عالق في بئر مظلم لا يستطيع الخروج منه يكتسحه من جديد.

أغلق باب المطبخ ورفع سماعة الهاتف ليجري الاتصال الذي كان يؤجله

www.elromancia.com

منذ أكثر من سنة.

* * *

بعد مرور أسبوع.

كان عليها أن تكف عن النظر إليه. فالأمور تتخطى المعقول.

إنه رجل رائع وكأنه تمثال منحوت بدقة بعثت فيه الحياة... ألن تنتهي موجة الحرّ الخريفية؟ مرّت تسعة أيام من الحرّ الشديد، ما كان يدفع نواه لخلع سترته أثناء العمل.

لم تعد تحصي المرات التي آذت فيها أصابع قدمها أو جرحت ساقها من جراء التعثر أو السقوط عند التحديق فيه، لكنها تعرف أن عدد وخزات الابرة في سبابتها بلغ اثنين وخمسين.

حسناً، يجب وضع حدّ للأمور في الحال. أخفضي نظرك وركزي على اللحاف أمامك قبل أن يصبح غير صالح للبيع. أجل، يمكنك فعل ذلك.

لكن سرعان ما ارتفع نظرها. من الواضح أنها عاجزة عن ضبط نفسها؛ لذا عليها أن تلجأ إلى الخطة البديلة وتبتعد عن خط النار.

أعلنت للأولاد: «إني ذاهبة للجلوس في الكرسي الهزاز».

أجل ذاك المكان آمن، فالكرسي الهزاز موجود في الجهة غير المطلّة من الشرفة. لكن يستحسن أن تأخذ الأولاد معها فأضافت: «هل تريدون أن أفتح خرطوم المياه لتتنعشوا قليلاً قبل أن أعدّ لكم العشاء؟».

في الصيف، كانت تصطحب الأولاد إلى الشاطئ أثناء وجود دوريّات خفر السواحل، لكن المنقذين رحلوا، وهي لم تكن ماهرة في السباحة بما يكفي لتخاطر بأخذ الأولاد وحدها. لذا، كانوا يلعبون بالمياه في البركة الصغيرة بعد ظهر كل يوم. وكان تيم يحب أن يلعب دور الولد الأكبر بين بقية الأولاد ودور المراقب فيطمئن إلى سلامة الجميع.

صرخ رودي متحمساً: «أجل أودّ اللعب على سُلّم التزحلق بعد غسله بالماء!».

تبعتهم وهي تحمل سلة الخياطة: «تيم، لا تنسَ أن تغسل سلّم التزحلق

جيداً بالماء».

كانت تعلم أنه سيفعل، لكنه يحب سماع هذا الكلام الذي يجعله المراقب والمسؤول الأول عن بقيّة الأولاد.

بدأ تيم عملية الغسل وقد مدّ لسانه في إشارة إلى مدى تركيزه على عمله، وأبعد أخاه الصغير إلى الوراء: «لا يا رودي، قد تؤذي نفسك هكذا، سيكون السلّم جاهزاً في غضون دقائق».

- حسناً، تيمي، أسرعا.

ابتسمت جنيفر للولدين وهي تفرش بساطاً صغيراً. لقد انضوى تيم تحت لواء العائلة مجدداً وتوقف عن الهرب والاختفاء، وبدا أنه يتقبل الحياة هنا.

لقد أدهشها الأمر في البداية، نظراً لمدى غضبه وحدّة ثورته في وجه نواه في البداية. لكن إن نجح الأمر وإن رأى والده أن التغيير إيجابي فمن هي لتشكك في المسألة؟

- هل هي المدرسة؟.

- أمي؟.

رفعت الإبرة وفركت إصبعها وتمتمت وهي تنظر إلى نواه: «أربع وخمسون».

ألن يضع السترة عليه أبداً؟.

نظر إلى أصبعها المتأذي وقال: «أربع وخمسون ماذا؟».

وأضاف وهو يلاحظ عدد الوخزات في إصبعها: «آسف، هل أنت مصابة بالسكري؟».

هزّت كتفيها تشعر بالإحراج وتقول: «بل مجرّد خرقاء».

- وهل اخترت خياطة الأغطية كهواية لك؟ هل تنظرين إلى الأمر على أنه تحدٍ؟.

ضحك وهو يجلس بقربها وأضاف: «لماذا لا تحصلين على قمع خياطة؟».

ضحكت وقالت: «كان لدي العشرات، لكنني لا أنفك أضيّعها».

وتابعت: «خياطة الأغطية كانت تمريناً على الصبر، مجرد طريقة لتمضية

الساعات الطويلة. وقد وقعت في حبها سريعاً. كما التقيت بأعز أصدقائي ضمن مجموعة خياطة الأغطية».

فقال بهدوء: «تبدو حرفة هادئة جداً، مثلك تماماً».

وابتلع كوباً مليئاً بالمياه الباردة كان قد جلبه معه.

حاول جاهداً منذ الأسبوع الماضي أن يتحدث إليها لبدء علاقة الصداقة التي تحدثا عنها في الليلة الأولى حيث تحدثا عن طفولة كل منهما وأيام المدرسة، وأسباب اختيارهما لمهنتيهما. وتكلّما عن أفراد العائلة الذين ما زالوا على قيد الحياة، من أخيه إلى أخواتها وإخوتها وأبناء عمها وأخبرته عن والديها اللذين بدءا رحلة حول العالم بعد تقاعدهما.

سرّها أن تجد شخصاً بالغاً تتحدث إليه عن أمور أخرى غير الأولاد. لكنها كانت واثقة تماماً من أمرين: الأول أنها لا يمكن أن تكون صديقة نواه والآخر أنها بعيدة كل البعد عن الهدوء والسلام.

قال وهو ينظر إلى ما بين يديها: «إنه غطاء جميل. إنه ناعم ورائع».

كان الغطاء ملجأها من التحديق فيه في الأسبوعين الماضيين، وقد اختارت الألوان والطراز عشوائياً.

نظرت إليه لترى ماذا خاطت يداها على مدى الأسبوعين الماضيين، وشعرت بموجة حرّ تلفح وجهها. كانت الرسوم عبارة عن دوائر متداخلة وأوراق ورود على شكل قلوب...

قالت بسرعة قبل ان يطرح عليها سؤالاً آخر: «إنه... طراز تقليدي اشتهر منذ أوائل القرن العشرين، وبما أنه فصل الخريف...».

وفكرت باستياء إنه لو كان أحد أعضاء نادي الخياطة موجوداً لأطلق ضحكة هازئة وأغاظها من دون رحمة.

إنه طراز تقليدي ومشهور: إنه غطاء زفاف. والأسوأ أن ألوانه تتراوح بين العاجي والبني الفاتح والذهبي، ألوان خريفية لكنها أيضاً بلون عيني نواه وشعره وبشرته.

لم تدرك هذا حتى الآن، لكن الإثبات ماثل أمامها ولم تستطع إخفاء

مشاعرها الدفينة التي يعكسها عمل يديها.

سمعت صوتاً في داخلها يهمس: هيا أيتها المستبشرة قومي بتسوية الأمر.

أي رجل قد يرغب بالارتباط بامرأة لا تستطيع الإنجاب؟.

وهمس لها عقلها: نواه لديه أولاد، ولا يحتاج إلى إنجاب أطفال منك.

لكن هذه ليست المشكلة فعلاً.

لطالما رغبت في أن تكون زوجة وأماً، أن تحمل أطفالها وتشعر بهم يركلونها، وترضعهم وتقرأ لهم القصص وتغني لهم، حتى أنها لم تقلق بشأن سنوات مراهقتهم.

أجل لقد حلمت، وكان كودي من دفع ثمن أحلامها.

- جنيفر؟ هل أنت بخير؟ هل بدأت الحرارة تؤثر فيك؟.

عندما يتكلم بنبرة اهتمام على هذا النحو كان صوته يملأها بحلاوة خشنة، ويجعلها تنسى كل شيء: ماضيها وألمها، كل شيء إلا موجة المشاعر التي تجتاحها. لا يمكنها الحصول عليه فاللمس ممنوع.

ابتلعت ريقها وسارعت تقول: «عليّ أن أطرح عليك السؤال ذاته، بما أنك لا ترتدي قميصك هذه الأيام. أتمنى لو تعود وترتديها بحيث لا أصاب بكل هذه الوخز...».

وتوقفت فجأة عن الكلام مرتعبة، وفتحت فمها لتتكلم من دون أن تتمكن من النطق بكلمة واحدة.

رفعت نظرها إليه فرأته يعضّ شفته من دون أن يتمكّن تماماً من كبت ضحكته. كانت عيناه تفيضان حرارة كما لاح فيهما شيء أكثر عمقاً ودفئاً ورجولية: «لم أكن أدرك أن الأمر يزعجك. سأرتدي شيئاً ما على جسمي».

كان عليها أن تطبق فمها وتمنع نفسها من الاعتراض، فها قد حصلت على ما أرادت على مدى أسبوعين. وتمنت لو أنها أبقت فمها مطبقاً.

لكن ما من شيء سيمنعها من التحديق فيه على أي حال.

وسالت نقاط العرق على طول رقبتها. ليساعدها الله، من الواضح أنها مثيرة للشفقة! قفزت على قدميها تاركة الغطاء يقع على أرض الشرفة فيما

تناثرت بقية الأغراض، وقالت بأعلى صوتها: «افسحوا لي الطريق!».

وركضت نحو سلم التزحلق.

ضحك الأولاد وتفرقوا ليفسحوا لها الطريق، فهم يعرفون معنى كلامها وأنها ستقوم بالتزحلق بنفسها.

جمع نواه أغراضها وهو يراقبها تركض وتتزحلق وتحط على الأرض الرطبة من دون أي رشاقة. وأخفى ضحكة ماكرة.

هذا غريب. لقد وجدها جميلة في البداية وبطريقة عادية، وقدّرها كما يقدّر أزهار حديقتها. كانت أزهار رائعة لكنها بادية للكل. كان يريدها إذ أيقظته؛ أيقظت شيئاً ما في داخله لكنه يستطيع السيطرة عليه.

لكن كلما رآها، أسرته بكل حركة من يديها ووركيها وابتسامتها وضوء عينيها، بجمالها الذي لا تستطيع أي كمية من الماكياج أو أي عملية جراحية ابتكاره. كانت هي ببساطة، جنيفر...

حطت بين مجموعة من الأيدي والأرجل عند أسفل سلّم التزحلق فضحك. يمكنها أن تسعده بأبسط حركاتها وعدم تعقيدها، وأن تأسر قلبه وروحه بمدى حبّها لأولاده وكيفيّة شفائها لهم بمجرد وجودها.

وقفت على قدميها وهي تصرخ: «لنتراصف وراء بعضنا، ونشكل قطاراً».

كانت ابتسامتها مشعة، وردّت ضفيرة شعرها إلى الوراء وكأنها مصدر إزعاجها الأول.

ليته قادر على لمسها بشكل طبيعي أو ليته يملك حرية لمسها، أو حرية أن يكون رجلاً مجدداً. وأحسّ بالحرقة في صدره. راح الأولاد يدفعونها نحو أعلى السلّم وانتظروا بالصف، تيم يمسك بسيلا وسيلا تمسك برودي ووقفت جنيفر وراء تيم ووضعت يديها على خصره وهي تدفعه أمامها وتصرخ بصوت مرتفع: «انطلق!».

لم يصلوا جميعاً إلى أسفل السلم لكن أحدهم لم يهتم للأمر، فالكل كان يضحك ويقهقه. وأصدر رودي ضحكته المتقطعة المعتادة، لكن سيلا وتيم

بديا مفعمين بالبهجة والمرح.

لم يستطع احتمال المزيد إذ بقي وحيداً فترة طويلة وعليه أن يكون جزءاً من المرح الحاصل.

وصرخ قائلاً: «دعونا نشكّل قطاراً أطول».

وركض باتجاه التلة مضيفاً: «سوف اهزمكم جميعاً».

غصّ بريقه عندما رأى سيلا وتيم يركضان لدفعه. تعمّد التعثّر والسقوط تماماً كما تفعل جنيفر عندما تعرف أنهم يريدون أن يربحوا فسقط على العشب الرطب وغطى الوحل وجهه قال: «يا لي من مغفل!».

قهقه الأولاد عندما رأوا وجهه المغطى بالوحل.

- قف برانيغان، إنك تعطّل مسار القطار.

ضحك نواه لجنيفر عندما رآها تقف أمامه كناظرة مدرسة مع أنها كانت نوعاً ما متسخة وغير ملائمة لهذا المنصب. يا لها من تناقض رائع! إنها المعجزة التي لم يحلم يوماً بحدوثها، عليه أن يكون حذراً أو سيقع حتى أذنيه في حبها ولن يتمكن عندئذ من النهوض مطلقاً. لكن مع كل السعادة التي يشعر بها سوف يتمسك بها قدر المستطاع.

مدّ يده يمسك بيدها المستعدّة لمساعدته، لكن عندما بدأ ينهض تعمّدت تركه يقع على وجهه مجدداً وقالت: «هزمته!».

وعاد الأولاد يقهقهون ضاحكين فيما صرخ رودي: «كم هو مضحك أبي!».

وصرخ تيم يقول: «كم يبدو أبي تافهاً، حتى أنه لا يستطيع النهوض عن الأرض بنفسه!».

بدا وكأن لا مشكلة لديه في أن تلمس جنيفر أباه، طالما يقع على وجهه.

نظر إلى المسؤولة عن هذا المشهد التي بدت غير واعية تماماً لما فعلته بعائلته أو لجمال مظهرها الساحر.

قال يهدّدها بلهجة غريبة: «سوف أردّها لك».

قالت بصوت أشبه بالغناء: «أجل، أجل ها هو برانيغان يهدّدني».

وركضت نحو سلم التزحلق، مضيفة: «تراصّفوا أيها الأولاد، حان وقت تشكيل قطار كبير! وأنا السائق هذه المرّة».

قفز نواه على قدميه وكشّر ثم أمسك بتيم الذي وقف في آخر الصف... إن كانت جنيفر قد تعمّدت لعب دور السائق فلا مشكلة. فخلال النصف الساعة القادمة سيكون برفقة عائلته، عائلته السعيدة، وهذه نعمة.

* * *

إنها معجزة أخرى تحدث في مزرعة مارش.

وصرخ رودي بطريقته المعتادة المليئة بالصخب: «مرحباً، أيها العم جو، ها نحن هنا. أتينا من أجل تيمي!».

ضحك العمّ جو وقال: «والآنسة سيلا، كيف حال أجمل فتاة في بريزبان؟».

ابتسمت سيلا ولوحت بيدها من خلف تنورة جنيفر. إنها لا تعرف الكثير عن هذا الرجل الضخم البدين، لكن إن كان تيم ورودي يحبانه فستعطيه فرصة. ابتسمت جنيفر لعمّها وقالت: «لقد اتصلت. لكني ظننت أنكما في الحديقة الخلفية، هل هو هناك؟».

أومأ جو برأسه وقال: «أتى إلى هنا بعد المدرسة. قال إنه أخذ إذناً بذلك. أظن أنه لم يفعل».

وتنهّد قبل أن يتابع: «كان في مزاج سيء يا جيني، لم يشأ أن أساعده حتى. كل ما أراده هو دق بعض المسامير في الخشب لفترة. ماذا لو أجلبه إلى المنزل عند وقت الغداء؟».

تنهدت جنيفر بدورها وقالت: «تعال لتناول العشاء، قد يساعد ذلك».

بدا جو متردداً قليلاً وهو يقول: «ثمة مباراة كرة قدم الليلة، فما رأيك لو يبقى لتناول العشاء ومن ثم أعيده إلى المنزل؟ إنه يوم جمعة ولا بأس إن أطال السهر قليلاً. سوف يمنحه ذلك فرصة لينفّس غضبه».

بعد شيء من التردّد أومأت برأسها: «سوف أسأل نواه، وأتصل بك لاحقاً».

قال جو بهدوء: «ينفعه أن يبقى هنا يا جيني، وهو يسديني خدمة بذلك أيضاً. أحب وجود الولد هنا. لدينا مشروع أو اثنين نعمل عليهما...».

أمسكت جنيفر يده برفق وقالت: «أعلم يا عمّي جو. تريد ولداً يؤنس وحدتك، أليس كذلك؟».

ضحك جو، وأمال برأسه ثم قال: «إني مسّن جداً بالنسبة إليه فهو مجرّد ولد. لكن بطريقة أخرى هو رفيق روحي».

كان نواه يعمل على إنجاز شرفتها عندما رآها برفقة الولدين يضحكان فارتفعت معنوياته. لقد وجدت تيم عند العم جو.

شكر الله على وجود جنيفر، فبفضلها وبفضل عمّها وجد تيم مكاناً آمناً يهرب إليه دوماً... كما اعتادت سيلا أن تختفي عند الجيران.

لكن عندما خرجا من السيارة من دون تيم، سرى في أوصاله الرعب المعتاد، وكأنه غطس في مياه مجلّدة. وصرخ قائلاً: «أين تيم؟».

كان صوتها ووجهها عاديين وقالت: «هو والعم جو يعملان على بعض المشاريع معاً. وقد دعا تيم لتناول العشاء ومشاهدة أول مباراة كرة قدم لهذا الموسم، إن كان ذلك يناسبك. قال إنه سيعيده إلى المنزل بعدئذ أو قبل ذاك الوقت إن كنت تفضل».

وانطلقت سيلا تقول بعينين مشعتين: «اصطحبتني جيني إلى متحف الألعاب اليوم يا أبي. صديقتها بريندا تديره، ولديها دمى أكثر بكثير مما رأيته طوال حياتي».

إلى متحف الدمى؟ رائع! لم أكن أعرف بوجود واحد.

انتظر إجابتها آملاً أن تفصح عن مزيد من المعلومات.

هزّت سيلا رأسها بقوّة تشع فرحاً لخروجها في هذه النزهة: «قالت السيدة إنّ الكثير من الكبار يسلّمون ألعابهم. ثمة العديد من الدمى القديمة فعلاً، وبعض الدمى التي تتكلم وأخرى أنيقة ودمى صغيرة تشرب الحليب من قناني صغيرة».

وأضاف رودي متحمساً: «ثمة دمى على شكل جنود أيضاً يا أبي».

www.elromancia.com

قطّبت سيلا وقالت: «لديهم مسدّسات وعصي أيضاً. هذا ليس جيداً».

ضحك نواه وأبقى يده على خصلات شعر سيلا: «ليس جيداً لكن الصبية يحبونها. ليس للصبيان ذوق رفيع مثل الفتيات، فهم يحبون الأشياء السخيفة كالمسدسات والعصي».

ابتسمت سيلا له وكاد نواه يشهق من الدهشة. بالكاد تذكر متى كانت تبتسم له وحده: «هل تحب المسدسات والعصي؟».

تعابيرها الواثقة كانت تقول إنك بالطبع لا تحبها.

وتمتمت جنيفر بصوت ضاحك: «قديماً في أيام الشباب».

رمقها بنظرة هازئة مهددة قبل أن يلتفت إلى سيلا يخبرها حقيقة قد لا تعجب رودي: «حاولت أن أحبها لفترة بسيطة. لطالما أحببت الليغو ومكعبات البناء والرسم، لكن رفاقي في الشارع أرادوا ممارسة الألعاب الخشنة لذا كان عليَّ أن أدّعي أني أحب تلك الأمور أيضاً».

ابتسم له رودي بشفقة واضحة وقال: «مسكين أبي».

وربّت على يد نواه. أومأت سيلا برأسها موافقة مع رودي ورفعت حاجبها قائلة: «لابد أنه من الصعب أن يكون المرء صبياً».

كاد يختنق من الضحك. إنها فتاة رائعة فعلاً. أراد أن تستمر تلك اللحظات النادرة مع ابنته التي كان يحاورها، فطمأنها بصوت وملامح عاديين: «إنه فعلاً كذلك».

- أتريد أن ترى الألعاب غداً أبي!.

أرادت سيلا تمضية الوقت معه. وها هي تدعوه من دون مقدمات! أومأ برأسه وابتسم قائلاً: «أهو موعد؟».

وبطرف عينه استطاع أن يختلس النظر إلى جيني فيما قال رودي بنظرة ملائكية كعادته عندما يطلب منها أمراً: «جيني، أنا جائع».

ضحكت له جنيفر ومدّت يدها تقول: «هيا إذن أيها الصغير. دعنا نحضر ما نأكله. ما رأيك بالبرغر والبطاطا المقلية لهذه الليلة؟».

صرخ رودي: «رائع!»

واندفع أمامها نحو المنزل. وبعد تردّد واضح ونظرة إلى والدها، اندفعت سيلا وراءهما.

ابتسم نواه لها ممزقاً بين فرحته بحديثهما الأول ورغبته في حدوث المزيد في حال لم يتكرر الحوار بينهما مجدداً.

- ما رأيك إذاً يا نواه؟ ماذا عن تيم؟ أقصد، أخبرت العم جو أني سأسألك أولاً وأتصل به لأعلمه بقرارك.

استدار نحو جنيفر مجدداً مدركاً أنه يجب ألا يفوّت اللحظات النادرة التي يمضيها معها من دون مراقبة تيم وقال بصوت حادّ أبح: «لا بأس إن كان ذلك يجعله سعيداً».

مدّت جنيفر يدها نحوه وأعادتها من منتصف الطريق قائلة: «إنه يتحسّن. أعرف أنه من الصعب ملاحظة ذلك أحياناً، لكن معلمته تقول إنه أصبح أكثر هدوءاً في الصف وبات يعامل الأولاد الآخرين برفق. أعتقد أنه سيساعدك قريباً في بناء المنزل الصغير».

إلا إذا تمّ العثور على بيلندا. لا يمكن لومها لعدم تفهّمها الأمر. لعل تيم شقي في تعامله مع الآخرين لكنه لن يثق بوالده إلّا إن عادت بيلندا وهذا ما لم يعد يؤمن به. كان تيم يلومه على اختفاء أمه وما من سبيل لتغيير ذلك إلا بحدوث معجزة ما.

استدار مجدداً يقص لوح خشب آخر وهو يقول: «هذا رائع».

- أعرف أنك تريد أكثر من ذلك. تريده أن يشفى ويتمكّن من تقبّل ما لا يستطيع تغييره. تريده أن يتوقف عن الشعور بالحزن لخسارة والدته لكنك والده وليس لديه شخص آخر يلقي عليه اللوم. مهما أثار قلقك، فلقد نلت قلبه نواه. إنه هنا معك ويحبك كثيراً حتى إن لم تتمكن من ملاحظة ذلك دوماً.

نظر إليها نواه عندما أنهت الجملة الأولى وقد أسرته بحنان صوتها ورقته. وقفت أمامه يدها اليمنى ترتجف وعيناها تلتهبان بنار كانت ستشاركه بها سواء شاء أو أبى. وسألها. «هل أنت بخير؟».

أخذت نفساً عميقاً قبل أن تتكلّم ومع ذلك أتى كلامها مخنوقاً بغصة:
«لقد خسرت بيلندا ومع ذلك لا تفهم أن ثمة الآلاف ممن ينتظرون لسنوات طويلة ويدفعون ثروات طائلة ليحصلوا على ما لديك. العائلة! لديك ثلاثة أولاد رائعين بصحة جيدة يعشقونك بالرغم من مشاكلهم، قد أموت لأحصل على ما لديك».

واندفعت تتجاوزه راكضة نحو المنزل بخطوات متعثرة.

وعندما انغلق الباب وراءها أغمض نواه عينيه وأوقع لوح الخشب الذي كان لا يزال يحمله. كانت محقة، محقة تماماً بحيث أصيب بالصدمة، وشعر بالعار لتغاضيه عن تلك الحقيقة بإرادته. أولاده الرائعون الأصحاء كانوا نعمة من الله يجب ألا يستهين بها، إنهم معجزة لا يمكنه إنكار وجودها.

كانت السماء تنعم عليه أكثر بكثير مما ظن.

لكن السبب الذي دفع جنيفر لقول ما قالته هو أكثر ما أصابه بالصدمة... أجل، كل ذاك العطش المؤلم في عينيها والشغف في وجهها وصوتها أخبراه أكثر بكثير مما قالته الكلمات نفسها.

كل ذاك الوقت كان ينظر إليها ويريدها ويتوق إليها ويركع على ركبتيه ممتناً لوجودها، مذهولاً بها. لكنه الآن رآها على حقيقتها. لقد أزالت كلماتها الغشاوة عن عينيه وبات يرى بوضوح، ليس المرأة وحسب بل الإنسان الذي يستمد قوته وعطفه من خسارة لا تقل صعوبة عن خسارته.

كل ذاك الوقت، كانت تصغي إليه وتعطيه لكنها لم تشاركه بشيء ولم يستمع هو إليها. كان خائفاً جداً من الدنو منها، وقد فاتته الإشارات كلها. لكن ليس بعد الآن. لم يكن الوقت ملائماً الآن. لكن القطعة الأولى من الأحجية التي لم تخبره بتفاصيلها وجدت مكانها. ونظراً لحزنها العميق أدرك نواه أن جنيفر بحاجة للتحدث مع أحدهم عن مأساة ماضيها. إنها بحاجة ماسّة لذلك.

٦ - طيف الغائبة

كان نواه يراقبها كلما ظن انها لا تنظر إليه.

أبقت جنيفر اهتمامها محصوراً بالأولاد وهم يأكلون ويغتسلون، لكن كان من الصعب تجنبه عند إصراره على المساعدة في حمام سيلا ورودي. كما اعتاد أن يغسل الصحون قبل عودته للعمل.

كان من الصعب التصرف بشكل طبيعي عندما ينظر إليها وكأنه ينتظرها لتنفجر مجدداً.

حسناً، لقد فعلت ذلك سابقاً...

أنا امرأة قوية. ولا أحتاج للاستناد إلى رجل، ولا أحتاج لعائلة لتكمّلني. يمكنني البقاء وحيدة. لدي حياة جيدة!

لعل يدها ترتجف، لكن هذا ارتعاش بالكاد يمكن ملاحظته.

كان لا يزال يراقبها.

ألن يتحدث؟ كانت تنتظر رحيله كقنبلة موقوتة. وقد رفضت قول أي كلمة لا تتعلق بالأولاد. لم يكن يعني لها شيئاً سوى أنه جارها، وقد اتفقا على أن يتناولا الطعام معاً طيلة فترة عمله على بناء المنزل والشرفة.

كانا منجذبين إلى بعضهما البعض، لكنهما اتفقا على إخفاء ذلك. فلماذا تشعر بأن الأمر خاطئ إلى هذا الحدّ؟

لأنك تكذبين على نفسك. هذه حقيقة لا يُمكنها إنكارها. عليها أن تقاوم الرعشة عند تلامس أصابعهما وهو يأخذ منها الصحن ليجففه. إن كان الانجذاب المكتوم بينهما على هذا النحو فكيف سيكون إذا أطلق له العنان؟

- تحتاج لأن تقص شعرك.

وكادت تشهق. من أين أتتها هذه الفكرة؟ وأضافت تدافع عن نفسها من جراء النظرة التي بها: «يبدو مشعثاً قليلاً».

هزّ كتفيه وقال: «كنت أنوي قصّه منذ فترة، لكنني انشغلت».

ومرّر يده في شعره يتفحّص طوله فابتلعت ريقها وهي تتبع بنظرها حركة أصابعه بين الخصل الطويلة الحريرية.

- يمكنني أن أقصّه لك إذا أردت.

ما خطبها الليلة؟ لكنها حافظت على اتزانها وهو يرفع حاجبه متسائلاً وأردفت: «أمضيت سنة كاملة في مهنة قصّ الشعر عندما كنت في السادسة عشرة، قبل أن أقرّر أني لست مناسبة لذلك وعدت إلى المدرسة».

- إن لم يناسبك ذلك، فكيف لي أن أثق بك وأسلّمك رأسي؟.

كان يسخر منها ما جعلها تبتسم وتقول: «تعلّمت ما يكفي لأعرف كيف أغسل الشعر وأقصّه قصة بسيطة».

ارتعبت لأنها كانت تهمس تقريباً. ماذا قد يفكر بها؟ وسارعت تقول: «لن أقص أذنيك أو أقطع عنقك أو أقص شعرك قصيراً جداً. إنه جميل جداً لكي تقصه قصيراً».

ساعدها يا الله! لقد فعلت ذلك مجدداً. كانت تحدّق فيه كطائر ضعيف وها هي الآن تطرح عليه فكرة قص شعره وتصفه بالجميل. أي حمقاء متيّمة سيقول عنها!

حدّقت في قدميها تتمنى لو تنشقّ الأرض وتبتلعها وقالت: «لا تقلق، كانت فكرة سخيفة. لا بد أن لديك عملاً تقوم به...».

- في الواقع، أقدّر لك قيامك بقصّ شعري إذا كنت تملكين بعض الوقت.

كان صوته هادئاً بعد أن لاحظ حرجها فساعدها على التحرر منه مجدداً. هل ستكفّ عن جعل نفسها حمقاء أمامه؟

كانت تعلم أنها يجب أن ترفض عرضه وتحافظ على ما تبقّى من كرامتها مصاناً، إلّا أنها سحبت له كرسياً وقالت: «اجلس».

وسحبت عدّة قديمة نادراً ما تستعملها لكنها لم ترمها بعد وتابعت: «لا أصدق أني ما زلت أحتفظ بهذه العدة».

أحنى رأسه إلى الأمام ليسمح لها بوضع الغطاء حول رقبته وكتفيه: «ألن تغسلي شعري أولاً؟ سمعت أنه يسهّل القصّ بشكل دقيق...».

كانت نبرته تحمل المكر الخالص لكنها قالت تعلمه: «لدي قارورة لرش المياه».

كان الوضع حميماً، حميماً جداً. كانت تمرّر أصابعها في شعره وتتحسّس فروة رأسه فيما قال نواه وهو يرجع رأسه للوراء: «هذا شعور جيّد».

- يفترض بي تدليك رأسك قليلاً قبل القص لإثارة فروة الرأس.

وأغمضت عينيها. أيتها الحمقاء! كان ينقص أن تقول له إنها لا تستطيع أن تبعد يديها عنه.

- سأبدأ بالقصّ الآن. انحن قليلاً إلى الأمام.

كان الأمر شخصياً جداً. لم تشعر بمثل هذا التوتر مع بقيّة الزبائن حتى مع مارك. تمرير أصابعها في شعر نواه قبل قصّه بدا مغرياً جداً وحاولت إخفاء توترها بالثرثرة المتوترة. لكنها عادت وفضّلت أن تبقى صامتة واكتفت بقول «يسار» أو «يمين أو «أعلى» أو «أسفل».

بدأت تشعر بألم في حنجرتها من جراء تسارع نفسها المستمر.

لم يكن بيدها حيلة، أنّى لها أن تتوقف؟ فجسمها وقلبها يخونانها. يا لها من امرأة قوية! كانت تتوق لأن يستدير نحوها وينظر في عينيها ببطء وشوق... ويضمّها بين ذراعيه و...

- أظن أننا انتهينا.

أعلنت هذا كارهة انقطاع أنفاسها. يا لها من امرأة حمقاء!

نظر في المرآة من كافة الزوايا وأومأ برأسه قائلاً: «عمل رائع، جنيفر، شكراً».

ولم يكن يبتسم، بل بدت نظرته غامضة ومغرية.

قالت عندما لم تعد تحتمل وطأة الصمت وقربه منها: «كاد الظلام يحل،

www.elromancia.com

وستعجز عن إتمام عملك».

فأجاب بصوت خشن محمّل بكل ما كانا يكبتانه: «لقد جلبت المصابيح، سأتابع العمل حتى يعيد جو تيم».

- اذهب إذاً. وسأنظف كل هذه الفوضى.

واستدارت جانباً قبل أن يُسيطر عليها سحره وسحبت الغطاء عن كتفيه.

- إذا أردت مني شيئاً فاتصلي بي.

سألت قبل أن تتمكن من ردع نفسها: «وما الذي تظن أني قد أحتاجه».

لمحته يهزّ كتفيه: «لعلك تحتاجين للتحدث إلى أحدهم. من الواضح أنك بحاجة للتحدث إلى أحدهم جنيفر».

ووقف.

استدارت مسرعة تواجهه: «لماذا؟ هل لأنه صادف أن ذكرت أن لديك نعماً كثيرة تستخف بها!».

- أظن أن ما لم تقوليه هو ما تحتاجين للتحدث عنه.

وسمّر نظراته على وجهها بدفء واهتمام وتعاطف واضح ما جعلها ترتعش شوقاً. إنه قوي وجميل ومليء بالرجولة وقريب جداً منها...

كانت الحاجة لأن تخبره بكل شيء تزداد قوة، بحيث لم تعد تحتمل. كما تضاعفت الحاجة لأن ترتمي بين أحضانه و...

ردّت بعنف لإخفاء ما يجري في داخلها: «أنت تظن أني ضعيفة جداً بحيث أحتاج للتحدث مع جاري الغريب عن شؤوني الشخصية».

- بل أظن أنك أكثر النساء قوة في العالم ولم نكن يوماً غريبين. بعض الناس يعرفون بعضهم منذ البداية، ويمكنك البقاء مع البعض الآخر عمراً بحاله ومع ذلك لا تعرفينهم.

كان صوته حاداً عميقاً ومحموماً وقد آلمها ذلك. فبعد خطوة واحدة فقط يمكن أن تكون بين ذراعيه. وقال: «أظن أنك تنهارين يا جنيفر، لكنك قوية جداً وفخورة جداً لتعترفي بحاجتك لأحد».

ارتدّت إلى الوراء متأثرة بعمق نظرته وبعد رؤيته فيما تابع يقول: «حتى

أكثر الناس قوة يقعون أحياناً».

وتجاهل يدها المرفوعة بوجهه في محاولة لخلق مسافة بينهما، حاجز مثير للشفقة وأردف: «نحتاج جميعاً للعطاء أحياناً. كنت موجوداً ورفضت المساعدة يا جنيفر وأنت تعرفين النتائج. لو أنني تواصلت معها واعترفت أن عائلتي بحاجة للمساعدة قبل اختفاء بيليندا، أثناء إصابتها بالاكتئاب وعجزها عن التأقلم مع الظروف، لكان أولادي مع أمهم الآن».

سرت رعشة في أوصال جنيفر. ما يقوله صحيح، ومع أن نواه يشعر بالجنون لعيش مثل هذه الحياة إلّا أنها تتألم حين تفكّر فيه على أنه زوج امرأة أخرى...

إنه زوج امرأة أخرى إلى أن يتم إيجاد بيليندا.

لمس وجنتها بإصبعه وقال: «أعطيت عائلتي الكثير ولست أطلب المزيد. دعيني أكون موجوداً من أجلك عندما تحتاجين لأحدهم جنيفر».

يا إلهي، إنه يلمسها.

جعلتها قوة لمسته تتنفس بصعوبة وعمق، وأحسّت بجسمها ضعيفاً يرتجف، الرقة في ملامح وجهه وصوته أذابتها، وغرقت في بحور التوق واللهفة. ولم تستطع الابتعاد بل رفعت نظرها إليه وتسمّرت في مكانها، لكن فمها قال حقيقة ودّت لو تغيرها: «لا يمكنك إنقاذي. ليس لك الحق في ذلك».

وسقطت يده عن وجهها.

بعد صمت دام بضع دقائق، صمت عبّر عن اعتراضه قال بصوت طبيعي: «شكراً على العشاء وقصة الشعر جنيفر».

هزّت كتفيها وجاهدت لتقول: «مجرّد همبرغر وبطاطا مقلية، وعشر دقائق لقصّ شعرك. ليس هذا بالشيء الكثير».

- لكنه يعني الكثير لي وللأولاد... إنهم يحبونك جنيفر. ولا تعرفين كم يعني لي أن أراهم يبتسمون سعداء مجدداً.

* * *

نبرته المخنوقة ملأتها بالعواطف وتركتها تتوق لمدّ يدها ولمسه لكنها ذكّرت نفسها بأنها لا تستطيع ذلك! إنه اتفاق عمل بيننا! كانت ترفض الاعتراف بالحقيقة، بأن آل برانيغان أصبحوا الخط الذي يصلها بالحياة ويبقي على سلامة عقلها.

كانت ستخسر الكثير بالاقتراب منهم جميعاً.

قفزت من مكانها عندما لامست يده كتفها وقال: «أعرف أنه لا يحق لي أن أسأل، ولست أفعل، لكن على الأقل اسمحي لي أن أكون صديقك جنيفر».

سرت في أوصالها تيارات من الدفء الذي ملأ قلبها وروحها الفارغتين منذ زمن طويل.

أغمضت عينيها بقوّة تستمتع بلحظة أو اثنتين من عدم الوحدة، برفقة نواه الذي يجب ألا يعني لها الكثير، بالشعور بالجمال والحلاوة المحرّمة عليها...

تراجعت خطوة إلى الوراء وهي تشعر بالخسارة والاشتياق وقالت: «ألا تفهم؟ لا يمكن أبداً أن أكون صديقتك».

وأسرعت نحو غرفة نومها وأقفلت الباب وشدّت الستائر قبل أن ينطق بكلمة أخرى ويهدّم بالكامل الوهم الذي تعيش فيه حيث أقنعت نفسها بأنها تتمتع بالحياة والسعادة.

كانت تعرف رغم الستائر المغلقة والظلام أنه في الخارج يعمل. ومجرد فكرة وجوده هناك جعلتها ترتعش توقاً وأملاً. لم تفعل شيئاً سوى التفكير به منذ اللحظة التي رأته فيها.

نظرة عينيه، وتوتر عضلات جسمه عند اقترابه منها أخبراها أنها ليست وحدها في الدوامة. فبمجرّد لمسة واحدة يفقدان السيطرة على الجسم والقلب والروح، وهذه فرصة لا تتكرر في الحياة. لقد أحبت مارك بكل جوارحها لسنوات لكن ما أن تلمس نواه حتى تشعر بأنها تنبض بالحياة، وتتناغم بقوة معه بحيث لا تفكر في شيء آخر وهي بقربه.

لمسة واحدة ويصبحان حبيبين...

سيكون الأمر جميلاً، لكنه سرعان ما ينتهي. لن تقطع وعوداً مع رجل لم ينفصل رسمياً عن زوجته المفقودة ولم يصبح طليقها أو حتى أرملاً فعلاً... كما أن نواه لا يعرف لما لم تتزوج مجدداً.

أغمضت عينيها مجدداً، وكلماته تلاحقها.

لكنها وللمرّة الأولى، لم تشعر بالأسى على كودي أو زواجها المهدّم.

نواه، تيم، رودي وسيلا، يحتلون حياتها الآن وهي قد تضحي بكل شيء لتملك الحق بأن تبقى معهم لفترة أطول ولتلمس نواه الذي تعرف أنها ستخسره وعائلته قريباً. وأحسّت بالألم تماماً كالذي شعرت به منذ عامين.

كانت مهووسة فعلاً بعائلة برانيغان. لقد شغلوا قلبها وروحها، مع أنهم يعودون لامرأة أخرى، امرأة موجودة بينهم، وحيّة في غيابها أكثر مما كانت عليه أثناء عيشها معهم.

أعاد جو تيم الناعس والضحكة تعلو وجهه بعد الساعة العاشرة من تلك الليلة. كان يبتسم من دون شك لأنه تسلّى مع جو ولأن نواه يعمل جاهداً على الشرفة ولا يرى جنيفر في أي مكان.

لوّح له تيم بأجفان ثقيلة وقال: «مرحباً أبي، أنا ذاهب لرؤية جين».

نادى نواه ابنه الذي كاد يتعثر وهو يتوجّه إلى الباب الأمامي: «هل استمتعت بوقتك يا صاح؟».

- ربح فريق سوانز أبي، كانت مباراة رائعة لبداية الموسم.

كشّر نواه ضاحكاً ورفع حاجبه قائلاً: «هذا رائع».

لوّح له تيم مجدداً ودخل المنزل ينادي جنيفر.

توجه جو إلى حيث يعمل نواه وقال بهدوء: «الكل يعامل جيني وكأنها أمه الآن، أليس كذلك؟».

لم يجب في البداية رغم أنه توقّع هذا السؤال طيلة الأسبوع الماضي ثم أومأ برأسه وأجاب بالهدوء ذاته: «لا يزالون صغاراً ويحتاجون لأم».

فقال جو بصوت خشن: «كما أنك تحتاج لمربية وامرأة تحضر العشاء وما

شابه. انتقالك إلى هنا يؤمن الوضع المثالي للجميع».

أجابه نواه متعباً: «قل ما لديك جو، فقد كان يومي شاقاً، وأنا متعب جداً لأتمكن من حلّ ألغاز حديثك».

- هل أخبرتك جيني شيئاً؟ هل قالت شيئاً عن ماضيها وسبب مجيئها إلى هنا؟.

السؤال الصريح لم يكن متوقعاً فرد: «قالت فقط إنها مطلّقة وإن زوجها السابق لم يعاملها جيداً».

تنهّد جو وفرك جبينه يبحث بشكل واضح عن الكلمات.

فقال نواه بهدوء وهو يقطع لوح خشب آخر: «لا تخسر ثقتها جو».

كان اللوح الأخير تقريباً قبل أن يبدأ بالبناء وأضاف: «لن تحب أن تخبرني أنت شيئاً. ستخبرني بنفسها إن شاءت ومتى رغبت بذلك».

كان يأمل ذلك.

وسارع جو يقول: «هنا تكمن المشكلة. هذا ما لا تفهمه، نواه. جيني لا تخبر أحداً عن أمورها الخاصة. لم تتحدث بالأمر حتى مع والديها بعد كل ما حدث. لقد ذهبت إلى أحد صفوف التعبير عن الأسى والحزن لكنها لم تخبرنا أبداً، نحن أفراد عائلتها. إذا أخبرتك أنت...».

وصفق قبضته على راحة يده الأخرى وتابع: «إذا قامت بإخبارك، فهذا لأنها...».

وأطلق سلسلة شتائم تظهر مدى غضبه وأكمل: «إذا أخبرتك فهذا لأنك تعني لها أكثر من أي شخص آخر في الحياة. وقد ترغب أنت في ذلك... أو قد ترغب في مساعدتها، ولعل هذا سيساعدها ولو لفترة قصيرة. لكن حين ينتفي السبب الذي من أجله انتقلت إلى هنا وتتابع مسيرك وكلانا يعرف أنك ستفعل...».

وصمت لحظة ثم أضاف بنبرة حادة جافة: «حين تذهب وتأخذ منها الأولاد فستتحطم».

تتحطّم.!

لم يقل تنهار أو يتحطم فؤادها بل تتحطم. لم يكن في ذلك تحذير أو تهديد بل مجرّد عبارة واقعية. جنيفر ستتحطم وسيكون هو المسؤول عن تحطيمها.

لم يكن يعرف ماذا يقول أو يفعل حيال ذلك. لم يعرف كيف يتعامل مع عطاءاتها فيما هو لا يقدم لها سوى تلك الشرفة التافهة، بحيث تتمكن من بيعها وتركه.

حين ينتهي الأمر، هل سيشعر بالأسى عليها لأن لديها حياتها وخياراتها، في حين أن بيلندا لم تترك له أي خيار، بل تركته سجيناً يكره كل من لديه خيارات في الحياة؟.

أومأ جو برأسه: «هذا هو الحال، أليس كذلك؟ فأنت لا تأخذ كل ما تقدمه لك ولأولادك بل تريد المزيد. أنت تريد شيئاً ما من صغيرتي جيني، على الأقل في الفترة الراهنة. لكن إلى أن تصبح حرّاً وتحصل على ما تريد، إلى أن تعرف ما حلّ بزوجتك وتسوّي الأمور مع تيم الصغير، توقف عن التلاعب بمشاعر ابنتي. إنك تأخذها إلى الجحيم وتعيدها وهذا ما يصيبك أنت معها».

وتنهد ثم أضاف: «إن الانجذاب بينكما قوي لدرجة أن عجوز أحمق مثلي يشعر به. إنها تحلم يا نواه... وهي تحب أولادك كثيراً، كأم لهم».

فاجأه بُعد نظر جو كثيراً، فالرجل على حق وكذلك جنيفر، إذ يستحيل أن يكونا مجرّد صديقين. فالمشاعر بينهما صارت مولّدة للحزن وهي تكبر يوماً بعد يوم. يمكنه أن يتخيّل نفسه بسهولة عجوزاً بشعر رمادي ومع ذلك تؤلمه المشاعر التي يكنها لجنيفر. فكل أمر بسيط شاركته إياه، كل خصلة شعر تردّها عن وجهها وكل عناق تعانقه لأولاده أو كل نظرة توق ترمقه بها تجعله يحلّق عالياً من الفرح بالعائلة والشعور بالانتماء، من فرح الشعور بأنه رجل ترغب فيه امرأة تحمل الكثير من الجمال الداخلي الذي يتوق له. إذا استغل الفرصة، فسوف يتفرّق شمل عائلته.

عليه أن يختار، فإما جنيفر وإما ابنه. وكلاهما ضعيف سريع العطب، كلاهما جزء من حياته ومن قلبه. كان يهتم كثيراً لأمر جنيفر، فمن يحطم

منهما؟ وبقدر ما كان يحب تيم راح الأسى في قلبه يكبر ويتعاظم خلال الأسبوعين الماضيين. إلى متى ستعتمد سعادة تيم على كفاح نواه وحيداً؟ هل عليه أن يتخلى عما تبقّى من أيام شبابه لمصلحة أمان تيم؟ إن التخلي عن جنيفر سيؤدي إلى حياة مليئة بالندم...

سوف تحطمها!

- عمّي جو هل تريد قهوة أو عصير قبل العودة إلى المنزل؟.

نبرتها الجليدية جعلته يرفع نظره إليها. وعندما نظرت إليه رأى الشك والاتهام في عينيها.

لقد سمعت! لعلها لم تسمع الحديث كله لكنها سمعت ما قاله العم جو عن ما يعنيه نواه بالنسبة لها. ها قد خسر أي فرصة تعويض عليها أو سماع القصة ما قد يزيل بعض العبء الذي يثقل كاهلها.

مستحيل! لن يدعها تنسحب، إنه يحتاجها كثيراً.

ومع ذلك، ألم تكن تلك هي المشكلة؟ هو يحتاجها لكن ما الذي تحتاجه جنيفر؟.

لم يكن الذنب في ما يحصل ذنب جنيفر. لا يمكن أن يتغير شيء في وضعهما فيما هو لا يزال عملياً متزوجاً، وطالما أنه يسمح لمخاوف تيم ورعبه بالسيطرة على العائلة ويسمح لطيف بيليندا بملاحقتهم جميعاً بمن في ذلك الأشخاص الذين لا يعرفونها.

ثمة خيار واحد أمامه، وهو وضع حدٍّ نهائي للموضوع.

٧ - أحمق أناني!

عليه القيام بذلك، من أجل تيم وسيلا.

كان نواه يقف أمام باب ردهة مستشفى الأطفال الخاص التي تبعد ساعة كاملة عن شمال هينشليف يقرأ اللوحة بامتعاض صامت. ماغي هورنر، ناشطة اجتماعية ومستشارة.

كان يعتقد أنه انتهى من رؤية الإخصائيين الذين يجعلونه يشعر وكأنه أحمق وزوج فاشل وأب فاشل. هذا ليس ذنبك نواه، فلست سوى كائن بشري. لا يمكنك تحمّل مسؤولية كل ما يجري في حياة الذين تحبّهم.

أنّى لهم أن يعرفوا؟ لقد تعلموا كل شيء في الكتب ونالوا الشهادات وظنوا أنهم خبراء في الحياة.

متى رحلت زوجاتهم وتركنهم مع ثلاثة أولاد دون سن السادسة؟ ليس هذا من شأني الآن. علي أن أتعلم كيف أساعد تيم وسيلا. لا يمكنني أن أترك الأمر لجنيفر، فليس هذا عدلاً.

دفع الباب يفتحه لكنه ترنح من الصدمة لرؤية أحد الشخصين في الغرفة، وشهقت جنيفر وحدقت فيه بدورها.

قالت امرأة ترتدي سروالاً كحلي اللون وقميصاً مخططاً: «حسناً، ها نحن».

- أهلاً بك سيد برانيغان. أنا راشيل، المضيفة في عيادة السيدة هورنر التي تقدم اعتذارها. استجدّت حالة طارئة في قسم العمليّات.

وتابعت المضيفة بصوت يملأه الأسى تقول: «لقد غرق أحد الأطفال. ستبقى ماغي مع الأهل في الساعات القليلة المقبلة، لتساعدهم على تجاوز

www.elromancia.com

المحنة بقدر ما يسمحون لها».

شهقت جنيفر مجدداً وقد اغرورقت عيناها بالدموع فيما ارتفعت يد مرتجفة تغطي فمها.

سارعت راشيل للقول: «آسفة يا سيدة مارش، لم يكن يجدر بي قول هذا بعد موت طفلك...».

شحب وجه جنيفر بسرعة، لدرجة أن نواه ظن أنها ستفقد وعيها. وأردفت راشيل وقد بدا عليها الشك والشعور بالذنب: «آسفة فعلاً يا سيدة مارش لم أقصد إفشاء السرّ...».

نظرت إليها جنيفر التي بدت شفافة ورقيقة كزجاج متشقق يسهل كسره وقالت: «لا بأس، ليس سرّاً من أسرار الدولة».

قالت راشيل بسرعة: «حاولت ماغي الاتصال بكما فوجدت أنكما خرجتما. عندئذ، تركت رسالتين على هاتفيكما. لاحظت ماغي أنكما جاران لذا اعتقدت أنكما قد تستفيدان من الوقت وتشربان القهوة معاً. ثمة مقهى جميل على الجانب الآخر من الطريق حيث تُقدم وجبة غداء لذيذة تحت المظلات في الهواء الطلق...».

قال نواه بوقار: «شكراً لك جنيفر».

لم يكن السؤال تحايلاً. الكلمات التي قالتها تلك الليلة ظلت تحرقه كنار تسري في الهشيم. لن أكون صديقتك أبداً.

كان ثمة الكثير بينهما لكنه مع ذلك ليس كافياً.

وبعد فترة تردد طويلة، أومأت جنيفر من دون أن تنظر إليه وقالت للمضيفة بصوتٍ مخنوق: «شكراً لإخبارنا بذلك».

كان عقل نواه مشوشاً وهو يفتح لها الباب. منذ حادثة الانفجار التي حدثت بينهما الأسبوع الماضي وتحذير جو له لم يحاول حثها على التحدث إليه بصراحة. كان يظن أنه يعرف مشكلتها لكنه بات الآن يعلم أنه يمكن أن يكون لجنيفر أولاد. فقد كان لديها ابن وتوفي.

قد أدفع حياتي ثمناً لما تملكه!

ها هي أجزاء الأحجية تتكامل.

وقال يبحث عن أي كلام: «هل تودّين شرب القهوة أو تناول الغداء؟ كادت الساعة تقارب الحادية عشرة والنصف».

وخرجا إلى أشعة شمس الخريف. كان الطريق يمتد طويلاً ومستقيماً مع لوحات إعلانية متماوجة متدلية من مصابيح الشوارع تعلن عن احتفال قادم.

بدا أن جنيفر لم تلاحظ الأمر، وهي تتمتم متلعثمة: «طفل مسكين لم يعش سوى حياة قصيرة».

اكتسحته موجة مفاجئة من العاطفة الجياشة فوضع ذراعه حول كتفيها وقال بصوت خافت: «ما يجعلني أشكر الله على ما رزقت به من أولاد».

لم تبعد ذراعه كما توقع ولم تدر وجهها نحوه بل ظلت تنظر أمامها بشكل مستقيم وقالت: «ألهذا السبب أتيت؟ لتتعلم كيف تساعد سيلا وتيم؟».

بدا السؤال أعمى وكأنها تدور في متاهة معتمة. كانت تسأله كالعادة عن حياته من دون أن تطالب بأيّ مقابل.

إنها جنيفر.

- أنت تعرفين قصتي جنيفر، وتعلمين لما أنا هنا. لم أخفِ أسراري عنك.

استدارت تنظر إليه بعينين غاضبتين وقالت: «هيا، تكلّم نواه وأنهِ الأمر».

يا لها من بداية حادّة! لكن إن كان هذا كل ما سيحصل عليه فهو راضٍ.

وقادها نحو الحديقة حيث تنتشر الطاولات تحت المظلات وسألها: «كم كان عمر ابنك؟».

قالت بإيجاز: «ثلاث».

أغمض عينيه للحظة. لقد فهم الآن تلك النظرة على وجهها عندما رأت رودي للمرّة الأولى.

- وما كان اسمه؟.

لمح تعبيراً ما على وجهها فيما بدت عيناها باردتين لا حياة فيهما وهي

www.elromancia.com

تجيب: «كودي جايمس ماكبرايد».

- كودي، اسم جميل.

لم تظهر سوى ابتسامة طفيفة على ثغرها وهي تقول: «اختار مارك الاسم، لكنه أعجبني».

وبعد تردد طويل أجابت عن السؤال الذي لم يعرف كيف يطرحه: «كان يعاني من التليف. وقد اختنق حتى الموت. كان الأمر شبيهاً بالغرق. لم تستطع رئتاه التمدّد بما يكفي».

كانت تتحدث وكأنها تؤدي دوراً في مسرحية، فتساءل كم من المرّات اضطرت لقول ذلك. وكانت نبرتها تقول له: حافظ على المسافة بيننا. صرت تعلم ماذا حدث فتراجع.

كان جو محقاً فجنيفر ليست من النوع الذي يرضى بلمس جراحه. سألها برفق وهو يمسك بيدها: «منذ متى وأنت تتابعين هذه الصفوف؟».

تركت يديها في يده ولم تبدِ أيّ مقاومة. كانت عيناها أشبه ببركتي مياه جافتين: «بدأت ذلك في المستشفى في نيوكاسل حين علمت بمرض كودي».

قالت بدأت وليس بدأنا ما أخبره الكثير عن مارك ماكبرايد. لقد ترك جنيفر وحيدة مع أساها وشعورها بالذنب.

أجل، فأنت لا تعرف شيئاً عن الإنكار الذي يعتمده الرجال والهروب أليس كذلك؟ خانه عقله مواجهاً إياه بالحقيقة.

لهذا السبب، وبعد مرور ثلاث سنوات على هروب بيليندا، ها أنت تمدّ يدك لمساعة الأولاد، ولا تحتاج مساعدة الغرباء.

وخانه عقله مجدداً الذي ذكّره: لكنك ستحصل مع ذلك على مساعدة جنيفر.

- وتابعتها عندما انتقلت إلى هنا؟

سمع نبرة غريبة مخنوقة في صوته وتساءل عما إذا كانت ستعلّق عليه.

هزّت كتفيها قائلة: «تابعت بعض الصفوف من وقت لآخر، عندما شعرت بالحاجة إليها. وقد أقمت صداقات جيدة مع كل من فيرونيكا

وجيسي في المجموعة. نحن نلتقي أيام السبت كل أسبوعين حيث أقمنا حلقة لخياطة الأغطية».

ابتسمت ولكنها بدت بعيدة عن السعادة: «لدى كل منهما أولاد تهتمان بهم وأنا لدي عملي. لذا، اخترنا أيام السبت أو الأربعاء فهي مناسبة للجميع».

قطب جبينه قائلاً: «لكنك لم تحضري هذه اللقاءات منذ...».

منذ أن اعتبر اهتمامها بأولاده أمراً مفروغاً منه أو منذ أن أصبحت عائلته تبقى في منزلها لتناول العشاء.

يا له من أحمق أناني! لم يفكر في جنيفر على الإطلاق. لعله فكر فيها كامرأة جميلة، لكن ليس كإنسان له حاجاته. ظن أنه وضع كتاباً عن العذاب والخسارة ليجد أن كل ما كتبه يتعلق بالأنانية والإغفال التام الأعمى عن كل شيء عدا حاجاته وحاجات أولاده.

أتى النادل وأخذ طلباتهما. وما إن ذهب حتى رفع يديهما المتشابكتي الأصابع قائلاً بهدوء: «أنا آسف حقاً جنيفر. كنت تكرّسين حياتك لي ولأولادي».

لم تعد عيناها خاليتين من التعبير بل متحمستين وخجولتين وهي تقول: «لا تعتذر نواه. لقد استمتعت باختبار الحياة العائلية مجدداً».

واستقر نظرها على اليدين المتشابكتين وعضت على شفتها ساحبة يدها قبل أن تردف: «الفترة قصيرة على أيّ حال».

- لماذا لا تتزوجين مجدداً؟

كاد يصفع نفسه لوقاحة سؤاله، لكن السؤال شغله كثيراً حتى قبل أن يلتقيها. كان عليه أن يعرف.

فركت جبينها بيدها وأزاحت خصلة متطايرة بفعل النسيم الخفيف، ووضعتها خلف أذنها. بعدئذ، راحت تلف الخصلة حول إصبعها وهي تجيب: «أنت تريد الحقيقة كاملة، أليس كذلك؟».

بدت متعبة قلقة وهي تخبره: «بعد ولادة كودي أجريت فحوصات لكلينا

لمعرفة من يحمل المرض ولما حالة كودي سيئة إلى هذا الحدّ. بدت الحالة غريبة ومتفاقمة لم يشهد الأطباء مثلها من قبل. وجدوا هذا المرض في عائلتي بحيث أنّ أي طفل أحمل به سيولد حتماً مصاباً بهذا المرض... وهكذا لن أخاطر بحياة طفل لمجرّد أن ألبي رغباتي».

لم يسبق لنواه أن رأى امرأة أكثر حزناً من تلك المرأة الهادئة المستسلمة أمامه؛ امرأة ولدت لتكون أماً أكثر من أي امرأة أخرى في العالم ومع هذا تقبل أن تكون وحيدة دوماً.

عندما أحسّ بالدفء في ذراعه وجسمه وشعر برأسها على كتفه أدرك أنه عانقها وضمّها بشدة وكأنها جزء منه وراح يهمس في أذنها: «آسف جداً، جنيفر».

همست بدورها وهي تبتعد عنه وتبتسم له: «لا بأس».

وسارع يسألها: «ألا يمكنك إجراء عملية زرع من أم متبرّعة؟».

ابتسمت مجدداً إنما بحزن عميق وقالت: «بلى يمكن. عرضت عليّ شقيقاتي التبرع بالبويضة. لكن هذه ليست المشكلة».

وأطلقت تنهيدة وأضافت: «رغم أن الأمر قد يبدو أنانياً، لكني أريد طفلي أنا وليس طفل شخص آخر، كما أني لا أريد أن أكون...».

- أماً عزباء.

عضت شفتها فيما تابع: «لا بأس يا جنيفر فتربية الأولاد وحدك أمر لا أنصح به».

همست: «أنت تعرف كم أنت محظوظ».

أجفل نواه: «جنيفر...».

هزّت كتفيها قائلة: «لا تفعل... لن تحوّل الأمر إلى دراما مأساوية. لا بأس، أنا أعيش حياة جيدة. لدي عائلة رائعة وأصدقاء يهتمون لأمري ونمط حياة مليء. ليست الحياة التي خططت لها لكنها مع ذلك جيدة».

- ما زال بإمكانك الزواج من رجل لديه أولاد ولا يريد المزيد منهم.

تلعثم وهو ينطق الكلمات التي بدت أشبه بعرض زواج.

بدا أنها لم تلاحظ، إذ هزّت رأسها وقالت: «لا يمكنني الزواج من رجل لأجل أولاده فقط، عليّ أن أتزوج عن حب».

ومنحته ابتسامة صغيرة قبل أن تكمل: «ورغم أني واثقة من أني سأحب أولاده، إلّا أنّ هذا لن يكون عادلاً بحقهم إن لم أحبهم بقدر ما أحببت كودي. كل ما أردته هو الزواج وإنجاب أربعة أو خمسة أولاد، لكن إن لم يكونوا أولادي...».

وتوقفت عن الكلام تهز كتفيها لكن ذلك لم يكن معبراً بما يكفي.

قطّب جبينه مجدداً وسألها: «هل تظنين أنك عاجزة عن أن تكوني أماً لأولاد ليسوا منك؟».

بدا الأمر جنونياً بالنسبة إليه، فقد منحت الأولاد الذين تقوم برعايتهم الكثير. كان من المستحيل بنظره أن تمنح ابنها حباً يفوق الحب الذي تعطيهم إياه. ابتعدت عنه ومسحت وجهها بالفوطة بتحفظ وهي تقول: «ليس كما يستحق الأولاد الحب».

وضع النادل القهوة والحلوى ورحل مجدداً فنظر إلى جنيفر عن قرب، إلى الوجنتين الرطبتين والثغر الجميل. لطالما حلم بهذا الوجه وأمضى ليال طوال من دون نوم وهو يفكر فيه.

لكنها ابتعدت واستقامت في جلستها وابتسمت مجدداً. لقد أقفلت الباب على الماضي ونمط الحياة الذي اختارت. قالت ما يكفي، وهي لا تشعر بالأسف على نفسها أو بالغضب كما أنها ليست غارقة في لوعة الأسى والحزن. كان لديها حياتها هي ستمضي بها.

إذاً، لماذا يبدو في الأمر خطب ما؟

- يجب ألا تكوني وحيدة.

عكست كلماته استغرابه من فكرة تقدمها في السن وهي لا تزال تهتم بأولاد الآخرين وتمضي يوماً بعد آخر مع من يذكرها بما لا يمكنها الحصول عليه مطلقاً.

وأردف: «ولدت لتكوني أماً. وبعض الأولاد يحتاجون أماً رائعة

www.elromancia.com

مثلك».

أشاحت بنظرها وقالت: «العالم ليس كاملاً. الأطفال حول العالم يولدون ليعيشوا وليس ليموتوا. ولم يخلق الناس ليموتوا من الجوع أو يعيشوا في مناطق تسودها الحروب. لا يحقق الكل أحلامه يا نواه».

من كانت تحاول أن تخدع: نفسها أم هو؟.

- أفترض أنك ترين دوماً الجزء الممتلئ من الكوب حين تشعرين بالأسى على نفسك.

لم يكن يعرف السبب وراء كلامه هذا لكنه لم يحتمل تقبلها الهادىء للأمور. كان يفترض بها أن تصرخ وتعترض على انعدام العدالة في الحياة. كان يجدر بها أن تقاتل وتقاوم.

استدارت نحوه ترفع حاجبها وتقول: «آمل ألا تكسر الكوب إن قلت نعم».

كانت ضحكتها ماكرة ومثيرة للتحدي في آن معاً.

ومن دون سابق إنذار انفجر ضاحكاً وهو يقول بعد أن استطاع أخيراً تمالك نفسه: «قد أفعل».

- إذاً لن أجيب وإلا صرت المتهم الأول.

وضحك مجدداً ثم ربت على ذقنها وقال: «أنت امرأة مذهلة، أتعلمين ذلك؟».

كانت تنقله من الأسى إلى الغضب ومن ثم إلى التسلية بسرعة تتخطى منطقه. لكن جنيفر تستطيع أن تجعله يشعر بأكثر من ذلك.

رفعت فنجان القهوة وقالت له ضاحكة: «حتى نحن الأشخاص المتفائلون دوماً يكون لدينا مفاجآت».

فكر في كلامها وهو يتناول قطعة الكيك. فهي لم تفعل شيئاً سوى ان تفاجئه منذ اللحظة التي رآها فيها. كيف أمكن لزوجها السابق أن يكون أحمق لدرجة أن يخسرها. لم يستطع نواه حتى أن يفهم ذلك. ليت الأمور مختلفة!... لكنه لا يزال ضائعاً رغم أنه يحاول جاهداً تغيير الواقع إلّا أنّ

بعض الأمور كانت تخرج كلياً عن سيطرته.

كان العهد الذي قطعه على نفسه منقوشاً في الحجر بفعل عذاب طفل بريء. لم يكن يستطيع الحصول على جنيفر وهذا يضع حدّاً نهائياً للموضوع.

قال العم جو بنبرة غامضة في اليوم التالي حين اتصلت به جنيفر: «كلا، لا تأتي فأنا وتيم مشغولان جداً الآن... امنحينا حتى الساعة السادسة».

تنهدت جنيفر ونظرت من النافذة. لم يظهر نواه بعد لكنه شدّد على أنه يريد تيم في المنزل عندما يعود من أحد المواقع الصناعية في بريزبان. لقد أمضى تيم كل فترات بعد الظهر مع جو طيلة الأسبوع الماضي مصطحباً معه صديقه المفضل إينان. وكان يحيط به جوّ من الحماسة الخفية على مدى الأيام القليلة الماضية، جو يصبح أكثر وضوحاً مع مرور كل يوم.

حان الوقت للكشف عن السرّ مهما كان. إذاً ماذا تفعل؟ هل تؤخر الأهل أم تجبر الولد على العودة وتفسد المفاجأة الكبرى؟.

كان عليها أن تتحمّل الأمر بطريقة أو بأخرى.

منذ حديثهما في ليزمور ونواه يتصرف معها بغرابة. ولعله لم يكن يدرك ذلك هو نفسه لكن الأمر واضح من طريقة نظرته إليها. لقد تغيّر شيء ما بينهما ذاك اليوم ولم يعد بإمكانهما العودة إلى الوراء الآن. فثمة شعور عالق...

وكأنه سيوضب أغراضه ويختفي يوماً ولا يعود.

قالت لجو على الهاتف: «بالطبع».

عدم اتباعها توصيات الأهل قد يؤدي بها إلى خسارة إجازة عملها لكنه لم يكن يدفع لها للاهتمام بتيم، إذ رفضت أي مال منه طالما هو يعمل على إنجاز الشرفة في فترات بعد الظهر.

كانت تعلم أن نواه لن يتقدم بشكوى رسمية ضدها، لكنها أملت فقط أن يحضر بعد الساعة السادسة.

لكن يبدو أن الظروف تعاكسها إذ حضر نواه عند الساعة الخامسة والنصف ونادى من السيارة: «مرحباً أيها الأولاد، لقد عدت وأحضرت

الهدايا للجميع!».

صرخ كل من سيلا ورودي وقفزا من حيث كانا يلعبان وتدافعا إلى الخارج: «هدايا!».

وتبعت الولدين. كان يجب أن تعلم أن لدى نواه سبباً ليطالب بعودة تيم، ويتصرفها هذا لم تخالف أوامر الأهل وحسب بل أفسدت متعة تقديم هدايا لأولاده. علت وجهه ابتسامة مصطنعة حين اقترب من المنزل وقال: «سمعت أن تيم لا يزال عند العم جو».

كانت سيلا تتحدث إلى لعبتها وتطعمها، ورودي يلعب بالمسدّس الآلي الأسود الذي يُخرج فقاقيع مائية.

لم تكن تملك حق مناقشة مدى صوابية قرارها في تلك اللحظة فقالت: «آسفة نواه، العم جو قال إنهما أصبحا على وشك الانتهاء من مشروع ضخم...».

هزّ نواه كتفيه بقلق، واختفت السعادة التي كانت تزيّن صوته قبل لحظات.

قالت بوضوح، غير قادرة على منع ظهور نبرة الدفاع عن النفس في صوتها: «لم يكن لدي الحق، أعرف ذلك».

- انت تهتمين لأمره أكثر مما أفعل في معظم الأحيان، لذا دعينا لا نناقش الأمر.

بدا التعب في صوته معدياً.

- كلا أنت متخصص في الإحساس بالذنب. ولا يحق لأحد أن يشعر بالسوء أكثر منك.

انطلقت الكلمات من فمها قبل أن تدرك أنها نطقتها، وحدقت فيه مرتعبة.

تشنج مع نهاية الجملة الأولى وقال: «لم اكن أدرك أن الأمر حق مكتسب».

وبدأ يسير مع الولدين إلى الشاحنة قبل ان يضيف بضيق: «اعتقدت أن

الأمر أشبه بحكم مدى الحياة، جنيفر. تدخلي بقدر ما شئت إن كنت تودّين ذلك».

وأحكم ربط الحزام حول مقعد سيلا.

هذا صحيح يا جنيفر، اتركي الرجل يعود إلى المنزل محملاً بالهدايا لأولاده وأفسدي المناسبة... ما خطبها؟ كم من مرّة عليها الاعتذار منه قبل أن تصطلح الأمور؟ قالت بهدوء: «العشاء جاهز».

ربط حزام رودي الذي راح يلعب سعيداً بالمسدس، مدعياً أنه يطلق النار على سيلا مراراً لكنها لم تكن تلاحظ بسبب انشغالها بإطعام لعبتها.

- اعتقد أننا أتعبناك بما يكفي ليوم واحد. لم يكن لديك وقت لنفسك طوال أسابيع. إنه نهار الأربعاء، يجدر بك الاتصال بصديقاتك والاستمتاع بوقتك. سوف نذهب لإحضار تيم.

ها هي الآن تتصوّر كيف ستمضي ليلتها وحدها... وتخيلت ساعات الصمت الطويلة من دون ثرثرة الأولاد أو الجو العائلي. مجرّد وحيدة.

لم يكن لديها ما تقوله. لقد باتت تتدخّل كثيراً في شؤون أطفاله مؤخراً وكأنها تعني شيئاً ما لهم: «فكرة جيدة، سوف أتصل».

أجبرت نفسها على الابتسام والتلويح للولدين فيما هو يسحب هاتفه الخلوي ويتصل بالعم جو.

- جو أنا في طريقي لإحضار العشاء لذا سأمر لآخذ تيم على طريقي... أجل أعلم، شكراً بأي حال. ماذا؟.

تحوّلت نبرته العادية إلى حادّة: «ماذا تعني بأنه ليس هناك؟ إلى أين ذهب؟».

استمع للحظة ثم ضاقت عيناه غضباً: «إنها مفاجأة. أستطيع أن أرى ذلك. منذ متى ذهب... ساعة ماذا حصل له؟ هل كان يشعر بالحزن؟ هل قال شيئاً؟ هل تعرف أين هو ابني يا جو؟ هل تعرف أين هو تيم؟».

شعرت جنيفر بالخوف والذنب وهي تضع حزام الأمان في المقعد الأمامي في حين سارع نواه لركوب الشاحنة.

٨ - في مهب الريح

- لا أستطيع إخبارك إذ وعدت الولد أن أكتم السر.

قال جو هذا للمرّة الرابعة ثم تابع: «أنا واثق من أنه ليس في خطر. أقسم لك أنه لم يهرب نواه».

قال نواه بحدّة: «وعود، عهود، ماذا يفترض بذلك أن يعني؟ هل تظن أن ذلك يعني شيئاً لي، في حين أن الظلام يكاد يحلّ وابني مفقود؟».

اختنق صوت نواه وهو يعيد سحب هاتفه من جيبه.

- لا تفعل ذلك!.

اقترب جو منه مجدداً يحاول إيقافه وهو يضيف: «كان الولد بغاية الحماسة نواه. إن اتصلت بشيربروك فسوف تفسد الأمر برمته».

- لا تنفك تقول لي الكلام ذاته. أطلعني على السبب!

وعندما هزّ جو رأسه فقد نواه الأمل بأن يتكلم وصرخ: «إذاً، تباً لوعودك ولمفاجأة تيم! ابني البالغ من العمر ثماني سنوات ضائع. والليل يكاد يحلّ وأنت تتوقع مني...».

أجابه جو غاضباً: «أن تثق بابنك، أجل هذا ما أتوقعه منك!».

وأضاف: «امنحه عشر دقائق بعد. هذا كل ما أطلبه منك!».

لكن نواه أجاب بنبرة متلعثمة: «هذا تماماً ما فعلته مع بيليندا، وثقت من عودتها إلى البيت بعد أن اتصل بي ابني البالغ من العمر خمس سنوات لأعود إلى المنزل. عدت إلى المنزل لأجد زوجتي قد رحلت من دون أغراضها. ومنحتها عشر دقائق ومن ثم عشر دقائق أخرى ثم أخرى آملاً أن تكون في السوق أو تقوم بزيارة شخص لا أعرفه، أي شيء إلا الحقيقة. وحين أدرج

اسمها على لائحة المفقودين، كل ما استطعت أن أفكر فيه هو: ماذا لو لم أمنحها الدقائق العشر تلك؟ ماذا لو أنني في العشر دقائق تصرّفت بحيث أتمكّن من إنقاذها؟ إن كان من أمرٍ علمتني إياه التجربة فهو أنه من الأفضل أن أجد ولدي حياً وإن غضب مني. إن كنت أستطيع إنقاذ حياة ابني، فسأفعل حتى لو كرهني».

انهارت مقاومة جو كشباك العنكبوت في مهب الريح، وسقطت يده عن الهاتف. فتحه وبدأ يطلب رقم المفتش فريد شيربروك.

- نواه.

لمسة يد جنيفر على يده جعلته يرتعش قليلاً.

- نواه، أفهم... أريد إيجاده بقدر ما تريد أنت. أنا المذنبة في ما حدث. لكن قبل أن تتصل بفريد لِمَ لا نتصل بمنازل أصدقائه؟ إنه مجرّد ولد، نواه. وقد كان سعيداً جداً، وهادئاً مؤخراً. ماذا لو كان يلعب ولم ينتبه لمرور الوقت....

- سبق أن اتصلت بمنزل إيثان ونحن في طريقنا إلى هنا لكن يمكنني الاتصال بالآنسة غرينوود لأحصل على أرقام أصدقاء تيم الآخرين....

لقد سمع ما تقول. كوّن تيم الصداقات هنا، وهذه إشارة إلى شفائه حتى لو لم يكن مستعداً للاعتراف بالأمر. هنا في هينشكليف لم يكن الأولاد يعرفون أو يأبهون لتاريخ العائلة. تيم كان مجرّد ولد عادي كغيره.

وقد شكر الله على ذلك.

إن أفسد الأمور بالمبالغة، فستنتشر القصة في كل أنحاء البلدة وسيكرر الناس كل ما يعرفون عن اختفاء بيليندا وستتكرر الأسباب التي جعلت تيم يبدأ بالهرب أصلاً.

كل ما لم تقله جنيفر تردد في ذهنه. فتيم لم يهرب منذ شهرين تقريباً. إن تغيّر المشهد والمدرسة والأصدقاء وحضور جنيفر الشافي صنع المعجزة التي صلّى لحصولها عند مغادرته سيدني. خطوة خاطئة واحدة ويُفسد كل التقدم الذي أحرزه تيم حتى الآن.

www.elromancia.com

لكن الأمر الوحيد الذي لم تستطع جنيفر أن تفهمه هو ذاك الشبح الذي يختال في حياته ليلاً نهاراً وطيف التاريخ الذي يعيد ذاته مراراً وتكراراً، كلما اختفى تيم أو سيلا. يا إلهي! ماذا لو كان الولد مفقوداً فعلاً، أو في خطر...

ردّ بعصبية: «لا أستطيع».

كان يشعر بالاختلال في التوازن تماماً كما شعر طيلة السنوات الثلاث الماضية، وضغط على الزر وتحدث إلى فريد باختصار ثم تسمّر في مكانه يشعر بالذنب والضياع والغضب. لكنه عاد إلى الواقع حين أحسّ بذراعين ناعمتين تلتفان حول خصره، وصوت يهمس من خلف ظهره: «إني أتفهمك. لا بأس!».

غمرته بحنان ومنحته الاهتمام والقوة بحيث لم يشعر مطلقاً أنه وحيد مع مخاوفه. ومن دون وعي أو قرار مسبق، استدار نحوها وهمس بضيق وخشونة: «شكراً لك».

الليلة لم يكن قلقاً بشأن بيليندا، فقد ذبلت ذكراها مع الزمن، لتفارقه الآن كلياً. عادةً ما يشعر بطيفها يحوم حوله كشبح مثقل بالذنب والندم. لكنه وفي هذه اللحظة لم يكن سوى والد قلق برفقة امرأة جميلة ناعمة أحبت ابنه وجعلته يشعر أنه رجل من جديد، امرأة تنظر إليه بعينين مشتاقتين تحرّرانه من كل مخاوفه، عينين واثقتين بثتا الثقة في نفسه من جديد.

وهمست شفتاها: «سوف يعود تيم إلينا».

كانت معه تسانده، ولأول مرّة منذ سنوات لم يشعر بوحدة قاتلة. ووجد نفسه يعانقها ويضمّها إليه بقوة، كاسراً ذاك الحاجز الذي كان يفصل بينهما لوقت طويل.

لكن هل يمكن لأول عناق حار بينهما أن يكون على هذا القدر من الخطأ؟ فالتوقيت خاطئ والمكان خاطئ وكل شيء خاطئ. فهو لم يكن حرّاً وابنه مفقود وولداه الآخران لا يبعدان سوى بضعة أمتار يلعبان بالدمي الجديدة أما جو الذي حذّره من التمادي في علاقته مع جنيفر فراح يراقب

بوجوم. وكاد نواه يشعر بشرارة غضبه.

كانت أنفاس جنيفر المتقطعة الحقيقة الوحيدة بالنسبة إليه، والاشتياق الحارق في عينيها كل ما يهتم به في هذه اللحظة ويحسّ به.

ها قد تدفقت تيارات التوق من قلبيهما... واشتعلت الشرارة، شرارة الجمر تحت الرماد.

وفجأة، ارتدت بجمود ونادت بدهشة ملوحة إلى اليسار: «تيم!».

نواه الذي بقي تائهاً في دوامة المشاعر احتاج لوقت أكبر ليتجاوب مع ما قالته.

لكن الوقت كان قد تأخر كثيراً.

فالولد الذي يشع فخراً وهو يركب دراجة صغيرة، التي لا بد أنها كانت مشروعه مع جو، اختفى في غضون لحظة وعادت الثورة تملأ ملامحه، بعينيه الذابلتين وشفتيه الملتويتين. لقد عاد ذاك الصبي المتشكك، ذاك الحارس.

رآه تيم يعانق جنيفر.

ناداه نواه كرد فعل تلقائي لإصلاح الضرر: «مرحباً أيها الصغير. لقد حصلت على دراجة؟ إنها رائعة فعلاً. من أين أتيت بها؟».

رمى تيم مفاجأته جانباً وكأنها لم تعد تهمّه وصرخ: «دعها أبي».

ذهل كل من رودي وسيلا لصوت تيم الهادر واستدارا ينظران إلى والدهما.

- أفلتها، دعها، قلت لك.

قال نواه وهو يخفض نظره إلى يده التي تشبثت بقوّة بيد جنيفر: «ماذا؟».

بعدئذ، نظر إلى تيم وقد تملّكه غضب يوازي غضب ابنه. حان الوقت ليفرض سلطته المفقودة منذ أكثر من ثلاث سنوات فإن بقي يعيش في خوف دائم من هروب تيم فسوف تتحكم بعائلته طلبات ولد أرعن غير مستقر لا يزيد عمره عن ثماني سنوات.

وعندما تكلم أتى صوته سلطوياً هادئاً وصل إلى مسامع ابنه: «أنا شخص راشد تيم وستفعل أنت ما أقوله لك وليس العكس. ما أفعله أنا وجنيفر أو

www.elromancia.com

لا نفعله مسألة تخصنا وحدنا وهي لا تعنيك».

أفلت زمام الأمور من بين يدي تيم وبدأت سيطرته تتفتت وتذوب.

وصرخ بصوت الطفل الصغير الخائف: «أنت متزوج بأمي!».

أغمض نواه عينيه. فالخيار واضح وإن كان محطماً للقلب. فإما أن يظل خاضعاً لشعور تيم بانعدام الأمان على أمل أن يشفى مع الوقت وإما أن يفعل ما بوسعه لمنح أولاده الثلاثة حياة طبيعية قدر المستطاع. لقد حان الوقت للتقدم سواء شاء ذلك تيم أم أبى.

أفلت يد جنيفر ومشى نحو ابنه. وحين وصل إليه وضع يديه الاثنتين على كتفيه بالرغم من تشنجه قائلاً: «لست أنا من ترك العائلة تيم بل أمك. لقد رحلت لأنها كانت حزينة، ولو أرادت ان تعود لفعلت ذلك منذ وقت طويل. وذاك الصراخ بوجهي، والهروب لن يعيدها إلينا. هل تفهم ذلك بني؟ إننا وحدنا الآن».

صرخ تيم وهو يصارعه بوجه شاحب: «كلا، كلا ستعود. أجل ستفعل. لقد وعدت بذلك».

انعصر قلبه لمدى الألم الذي يعيشه ابنه وقال بهدوء: «وعدت بأن تعود بعد ساعة، بني».

كوّر تيم يديه الصغيرتين وقال: «إنه ذنبك. ما كان علينا أن نرحل ونأتي إلى هنا!».

أغمض نواه عينيه مدركاً أن نبع أعذاره كاد يجف: «لقد نكثت بالوعد منذ ثلاث سنوات. كانت تعرف مكاننا طيلة ذلك الوقت ولم تعد!».

- لأنك جعلتها حزينة. هذا هو السبب!.

أدرك بامتعاض من ملأ رأس الولد بهذه الفكرة وقال: «أعرف أن جدك وجدتك يحتاجان لتصديق ذلك، لكن الأمر ليس صحيحاً تيم».

كان نواه يواجه ابنه الآن من دون خوف: «أمك كانت مريضة. كانت مصابة بما يدعى اكتئاب ما بعد الولادة. أنا لم أجعلها حزينة فقد أحببتها. أحببت أمك منذ كنت في الثالثة عشرة، وأردتها أن تعود إلى المنزل، لكن

المرض تغلب عليها وهربت. لكن إن عادت إلى منزلنا القديم، فجدك وجدتك يعيشان في الناحية المقابلة له، أليس كذلك؟ سوف تقصدهما وسيقولان لها أين نحن».

صرخ تيم وجسده الهزيل الصغير يرتجف: «كلا، كلا لن تتمكن من ذلك لأن جدي وجدتي ليسا هناك!».

وعاد يصرخ وقد ارتسم الغضب على وجهه: «ابتعدي عن والدي!».

استدار نواه ليرى جنيفر على مقربة منه يغطي ملامحها حزن رقيق وهي تقول: «تيم، هذا الصباح فقط، كنت صديقتك. وإن كنت أهتم لأمر والدك، فذلك لا يجعل مني عدوّة لك».

بدا وكأن كلماتها علقت في حنجرته. إنها تهتم لأمري! كان يعرف ذلك وقد عرفه طول ذلك الوقت لكن سماع الكلمات يجعل الأمر يبدو حقيقياً أكثر. لم تكن مشاعر رغبة أو إعجاب فقط بل هي تهتم لأمره وهو يهتم لأمرها. لقد وصلت الأمور الآن إلى نقطة اللاعودة.

- كان والدك خائفاً جداً عليك يا تيم، وقد عانقته ليشعر بحال أفضل. ألا يمكنني أن أكون صديقة والدك كذلك؟.

أشاح تيم بوجهه عنها وقال: «أبي».

جاءت الكلمة أشبه بتوسّل، باستعطاف يحثه على إعادة الأمان إلى عالمه الصغير والسماح له بالتعلق بخيط ذكرى رفيع، بالوعد الذي هو كل ما تبقى له من أمه.

وللحظة شعر نواه أنه أمام خيارين فإما الاستسلام بدافع الشفقة كما فعل على مدى الأعوام الثلاثة الماضية أو القيام بما ينبغي لمساعدة تيم على الشفاء. قال بهدوء: «تيم، ماذا قصدت بأن جدك وجدتك ليسا في المنزل في سيدني؟».

لكنه كان يعلم تماماً ماذا قصد تيم بذلك وملأه إحساس بالتشاؤم، فبيتر وجان لن يتركا المنزل إلا لسبب واحد، إنه السبب الذي يعيشان من أجله منذ اختفاء بيليندا.

عندما تململ تيم في وقفته وقد بدا مذنباً بشكل مزرٍ، قال له: «إنهما هنا، أليس كذلك أيها الصغير؟ سمعا عن المرأة التي تشبه أمك، المرأة التي تعيش هنا».

رفع تيم نظره إليه بعينين شبيهتين جداً بعيني أمه على الرغم من لونهما المختلف وسأل بذهول: «هل تعلم بشأن وجود أمي هنا؟».

كاد يشعر بتشنج جنيفر خلفه لكنه لم يكن يملك الوقت لطمأنتها: «أجل يا صغيري أعرف بشأن تلك السيدة. هل جدك وجدتك يعيشان في مكان ما قريب من هنا؟».

إن كان الأمر صحيحاً، فهما لن يخبرا نواه. ومع أنهما عرفاه طيلة حياته وكانا سعيدين جداً عندما تزوج بيليندا، إلّا أنهما أقصيا نفسيهما عنه منذ اليوم الذي وضعت فيه الشرطة إشارة على ملفها تقول «يعتقد أنها ميتة». وعندما تقبّل الأمر ولم ينفق كل وقته وماله على إيجادها بردت مشاعرهما تجاهه. وعندما كانا يتصلان، اعتادا أن يطلبا التحدث إلى تيم الذي يمرّر الهاتف بدوره إلى سيلا ورودي.

وفهم فجأة سبب هدوء تيم في الأسابيع القليلة الماضية. كان بيتر وجان يغذيانه من نبع الأمل الذي لا ينضب.

قال تيم بصوت أبح وهو يتمايل في وقفته مجدداً: «إنهما يعيشان في حافلة متنقلة بالقرب من بالينا. وهما يبحثان عن أمي وقد مضى على وجودهما هنا فترة قصيرة».

تنهّد نواه قائلاً: «لم أخبرهما بالأمر لكن تقرير الشرطة حول تلك السيدة كان السبب الأساسي وراء انتقالنا إلى هنا تيم. لقد عرضوا عليّ صورة، أترى؟ لم أخبرك بكل ذلك لأني لم أشأ أن أزوّدك بآمال كاذبة، لكن الشرطة أخبرتني أن ثمة امرأة تشبهها كثيراً وأنا أبحث عنها منذ وصولنا إلى هنا».

وتردّد قبل ان يضيف متألماً: «منذ حوالى السنة، استأجرت بعض الأشخاص المتخصصين وهم يفتشون عن أمك».

لف تيم ذراعيه حول عنق والده والتصق به بقوة تماماً كما يفعل عند

إصابته بالكوابيس وهمس: «شكراً، أبي، كنت خائفاً من أن...».

خائفاً من أن تكون قد نسيت أمي...

حامت الكلمات بينهما كطيف كذبة لم يتم البوح بها. كان نواه يعلم أنه في حال تبيّن أن تلك المرأة هي بيليندا فعلاً فسيحاول مساعدتها وتقبّلها، لكن لم يعد لديها في قلبه سوى القليل من الذكريات. لقد قام منذ شهر باستئجار محرّ آخر في البلدة للعثور على تلك المرأة، في محاولة أخيرة منه. لكن أوراق الطلاق التي طلب من المحامي تأمينها الأسبوع الماضي كانت على طاولته الآن. انتابته مشاعر الذنب والعار والألم وهو ينهي أحد فصول حياته التي بدت وكأن لا نهاية لها منذ ثلاثة أشهر فقط.

لكن حاجة الجدّ والجدة لإبقاء بيليندا حية مهما كان الثمن هي المسؤولة عن استمرار معاناة تيم...

هل هذا هو سبب الخوف في عيني ابنته؟ بقيت سيلا تختفي إلى أن التقوا بجنيفر؟ ماذا كان الجدّ والجدّة يقولان لأولاده؟.

بدا ذلك اليوم يوم اتخاذ الخيارات حيال قضايا عدّة. كانت تلك ساعة الحقيقة لكليهما. كان بإمكانه البقاء هادئاً، والسماح لابنه بأن يسيطر عليه ساعة يشاء وكيفما يشاء فيبقى قريباً منه مجدداً، أو يجعل ابنه يختبر أقسى أنواع الألم الآن ويجعله يشفى.

لم يكن أمامه أيّ خيار حقيقي.

- أعلم أن جدك وجدتك يريدان ان تكون أمك حية بقدر ما نفعل جميعاً، لكنني حصلت على أخبار من الأشخاص الذين استأجرتهم الأسبوع الماضي. أتذكر المغلّف الكبير الذي جلبته لي؟.

طرح السؤال بنبرة مبحوحة كارهاً ان يبدّد أوهام ابنه على الرغم من علمه بصوابية عمله: «عثروا على المرأة: إنها تدعى سارة لا نغتري وتعيش في الغابة مع زوجها وأولادها الأربعة. ومع أنها تشبه أمك كثيراً إلّا أنها ليست أمك، فلديها أولاد بعمرك وعمر سيلا».

تشنج جسم الصغير لبضع لحظات ثم أطلق صرخة مخنوقة لا روح فيها

كحيوان يحتضر وأفلت من بين ذراعي نواه وانطلق راكضاً كالصاروخ نحو دراجته.

هذه المرّة، لم يحاول نواه حتى مناداته ليعود.

واختفى مبتعداً على الطريق بينما انسلت يد صغيرة تمسك بيده وسأله رودي بحنو: «هل نذهب بالسيارة يا أبي؟ هل نذهب للبحث عن تيمي؟».

نظر نواه إلى الولد الصغير بجانبه وقد علقت الغصّة في حنجرته. لم يتأثر رودي وسيلا أبداً بقصة أن أمهما لم تعد حيّة وهكذا يجب أن تكون الأمور بالنسبة لهم. لكن مع ذلك شعر وكأنه يفرّق أفراد العائلة مع عدم حفاظه على ذكرى بيلندا حية وقوية في ذاكرتهم جميعاً.

وكأن في الشفاء خيانة لذكرى بيلندا كما كان والداها يعتقدان.

الآن فقط، بدأ بنسف الوهم الذي سمح لوالديها بتغذيته بعد أن أعلن عن إمكانية أن تكون متوفاة. كان تيم ولداً وهو يحتاج إلى تقبّل الواقع، ويحتاج أيضاً إلى المضي قدماً في عملية الشفاء.

لم يصبح تيم هادئاً كما اعتقد بل لجأ إلى جديه للعثور على أمه، التي لم تتمكن أو لم تشأ العودة إلى البيت. وهذا ما سيخبر به أهلها قبل انقضاء المساء.

انتهت فترة تقبل الوضع الراهن. لقد حان الوقت ليس للمضي قدماً وحسب بل للشفاء.

راقب تيم وهو ينحرف بالدراجة يساراً نحو الساحل، نحو المنزل وتنهّد بارتياح. اختفاءات تيم المتكررة لم تكن تتعلق بمحاولة إيجاد بيلندا أو بلقاء جدّيه. وقال: «أجل إلى السيارة ولكننا لن نذهب إلى المنزل يا رودي. تيم يحتاج بعض الوقت وحده».

إنها مخاطرة لم يكن يفكر فيها منذ سنة واحدة فقط، لكنها بدت له الآن الخيار الوحيد الممكن. لم يكن بوسعه إيقاف تيم بعد أن تهدّم حلمه وضاع أمله. كان يحتاج بعض الوقت لتقبّل العالم الجديد الذي سيعيد بناءه. وتوجّه مع سيلا ورودي المطيعين دوماً لقرار أبيهما نحو الشاحنة، وفتح لهما الباب ثم

استدار نحو جو قائلاً: «أنا آسف بشأن هذا كله».

أصيب بالصدمة لرؤية جو يمسح الدموع عن وجنتيه ويقول بخشونة محاولاً تغطية تأثره: «كلا، بل أنا آسف بني. لم أكن أدرك... على أي حال، قد تحتاج للاتصال بفريد وإخباره أن تيم بأمان».

هزّ نواه رأسه وتحسّس جيبه للعثور على الهاتف. لكن أين وضعه بعد أن...

- سبق أن اتصلت بفريد.

جاء الصوت هادئاً تماماً رصيناً.

إنها جنيفر.

كان الصوت آتياً من حديقة الخردة، حيث لا بد أنها توجّهت لتقوم بالاتصال. كان يعلم أن الوقت فات أصلاً وهو يلتفت نحوها ليجدها تمدّ يدها حاملة الهاتف ويعلو ثغرها ابتسامة طفيفة. قالت: «أوقعته عندما عاد تيم».

بدت متحفظة ورزينة، ولم تبد على وجهها أي إشارة تدل على حالتها العاطفية. لا شيء يستدل منه على شعورها حيال أسباب انتقاله إلى هينشكليف. لا بد أن الأمر بدا سيئاً جداً بالنسبة لها نظراً لما قاله في الليلة الأولى للقائهما ونظراً لعناقهما الحار.

لم يدم الأمر أكثر من بضع ثوان، فكيف له أن يقول عنه عناقاً حاراً؟

لحظات العناق هذه عنت له أكثر مما ينبغي وقد أدرك أن ذلك لن يتغير. لطالما كان متوتراً لا يعرف كيف يدير اللعبة، فمعظم سنوات حياته أمضاها مع بيلندا قلباً وجسداً ومن ثم جاءت سنوات الفراغ، حيث لم يرغب في التعاطي مع أحد سوى أولاده.

والآن عاد تركيزه ينصبّ ويتمحور على جنيفر.

كان يحب بيلندا حتى آخر نفس لو أنها لا تزال معه وتحبه. لم يعرف حقيقة مشاعره بعد، لكن الدلائل كلها تقود إلى المكان ذاته حيث كان مع بيلندا. كان يعرف تفاصيل وجهها ومعاني حركات شفتيها، وكيف تتغيّر

نظرة عينيها مع تقلّب مزاجها. وكان يعرف كيف تشعر من طريقة مشيتها. وكان يعرف متى تخبئ مشاعرها. وهذه المرّة كانت برودتها تغطي ألمها فتحاول أن تبدو أقوى مما هي عليه.

سوف يعرف كل شيء عنها وقريباً.

قال لها بهدوء: «شكراً».

أخذ منها الهاتف ووضعه في جيبه مضيفاً: «لنذهب إلى البيت».

تعمّد استعمال كلمة «البيت» ليختبر ردّ فعلها، لكنها اكتفت بهز رأسها: «الأولاد يحتاجون لبيت خاص بهم وأنت تحتاج لوقت لك وحدك».

ومع أنها ابتسمت إلّا أنها في أبعد نقطة عنه. كان يمكن أن تتحدث عن الطقس بخفة ولامبالاة، وهو يعلم أن هذا يعني نوعاً ما وجود مشاكل.

٩ - لن أعيش الكذبة

توجهوا جميعاً إلى المنزل بعد أن أخذ نواه البيتزا التي طلبها. ومع وصولهم إلى الممّر الطويل الذي يقود إلى منزلها، أدركت جنيفر أن قناع الهدوء الذي تضعه يتكسّر بسرعة، ويتشقق ليكشف سرعة تأثرها كلما نظر إليها أو تحدث. كانت تستسلم لرغبات جسم وقلب دفنا طويلاً في قبور الأسى. ولم تستطع إخفاء غضبها تماماً مهما حاولت جاهدة.

تمالكي نفسك، فأنت من وقع في حبه من النظرة الأولى. والعناق جعل الأمور واقعية فقط.

لا تفكري في الأمر! ادفني الذكرى وحسب فأنت بارعة في ذلك. التفكير في الغضب والأسى سيقودها مباشرة إلى الحفرة التي دفنت نفسها طويلاً بعد دفن ابنها. التقبل والمضي قدماً هو خيارها الوحيد.

قال نواه يكسر الصمت: «آسف جنيفر لأني كذبت بشأن سبب انتقالي إلى هنا وسبب غيابي عن المنزل خلال تلك الأيام. لم أكن أذهب دوماً إلى العمل بل استغليت صداقتك لتمضية الوقت في البحث عن بيليندا».

بعد أن أخذت نفساً قصيراً، التفتت نحوه. الحواجز في مكانها والابتسامة على ثغرها وقالت: «لا تقدم لي الاعتذارات نواه. لست في موقع يسمح لي باستجوابك أين تذهب وماذا تفعل. لقد فعلت ما فعلت من أجل عائلتك، ومن أجل تيم. لاتعتذر مطلقاً لأنك وضعت أولادك في المرتبة الأولى. كنت لأفعل مثلك، فطالما فعلت مع كودي».

- شكراً لك.

لكن نبرته حملت جفاءً لها. إنه لم يصدق كلامها. لقد دخل إلى أعماقها

www.elromancia.com

وكشف المشاعر التي تحاول إخفاءها.

هزّ كتفيه والتفت نحو الأولاد قائلاً: «كدنا نصل».

سألها رودي مبتسماً: «هل سنذهب إلى منزلك؟».

هزّت رأسها وهي تقول: «ليس الليلة يا عزيزي لكني سأراك غداً. يحتاج أبوك للوصول إلى المنزل من أجل تيم».

أومأ رودي وقد وهبته الحياة نعمة التقبل.

كانت سيلا تحاول إطعام لعبتها الجديدة. وهي الهدية التي جلبها نواه ليخفف ربما من وطأة خبر أن المرأة التي انتقل من أجلها لم تكن أمها.

قطّبت جنيفر وهي تسأل نواه: «ما كانت هدية تيم؟».

أجابها بهدوء: «دراجة».

كانت دراجة طبعاً. لقد باتت حياته مليئة بالسخرية منذ أن أصبح آل برانيغان جيرانها، وكأنها هي وعمّها جو سبب إفساد علاقة نواه بابنه.

- سوف أحتفظ بها إلى أن تتعطل دراجته الجديدة. وسأعرض عليه رحلة إلى مرفأ ليزمور، حيث يستطيع أن ينتقي ما يشاء، ضمن الحدود طبعاً.

قالت وقد غضبت وانزعجت من الكلام الذي لم يقله: «لا تحتاج لأن تمثل معي. ولا شك في أنك تشعر بنوع من الأسى أو الغضب بسبب أخبار زوجتك».

زوجة نواه، نعم هذا هو الأمر! ذكري نفسك دوماً بالموضوع فلا يعود العناق يعني لك شيئاً سوى مساعدة أب خائف. ضعي حداً لأحلامك الشخصية بأن تكوني حبيبة نواه... أو زوجته.

أوقف الشاحنة بالقرب من المنزل، واستدار نحوها يأخذ يديها بين يديه ويقول لها بعينين ملؤهما المشاعر: «مضى أكثر من أسبوع على اكتشاف الأمر. لا أستطيع الادعاء بأني لم أشعر بالألم يا جنيفر، لكن ليس كما تظنين. أنا...».

- جين، جين، أهذه أنت؟.

أخرجها الصوت المألوف من سحر كلام نواه الصادق ولمسته فشهقت

واتسعت عيناها لاقتراب الشخص الطويل من الباب. سحبت يديها من بين يدي نواه وراقبته يفتح الباب وكأنها في الحلم. تحت ضوء القمر وأنوار مصابيح الشرفة، رأت الملامح التي أحبتها يوماً برومنسيتها وغموضها.

أهي سخرية القدر، أم أن دوامة حياتها تدور خارج نطاق سيطرتها! سألت وهي تحدّق مذهولة في الرجل الذي شغل حياتها وروحها منذ كانت في السابعة عشرة من عمرها إلى أن خرج من حياتها وهي في أشد الحاجة إليه: «مارك! ماذا تفعل هنا؟».

وجهه ذو الملامح الإيرلندية الشبيه كثيراً بوجه كودي ملأته ابتسامة، جعلت التجاعيد تظهر حول عينيه الزرقاوين اللتين لم تستطع يوماً مقاومتهما.

- وأين عساي أكون في الذكرى العاشرة لزواجنا إلا مع زوجتي الجميلة؟.

ورفعها عن المقعد وأخذها بين ذراعيه.

قاد نواه الشاحنة مبتعداً عن منزل جنيفر رافضاً النظر في المرآة الخلفية وهي تعانق الرجل الذي لم يلاحظ حتى وجودها مع رجل آخر... هل يحاول القدر أن يسخر منه؟ في اليوم الذي أدرك فيه أن لا عودة إلى الوراء وفهم ما الذي تعنيه جنيفر بالنسبة له، ظهر زوجها السابق. لا عجب في أن تصرفاتها غريبة اليوم إذ يصادف ذكرى زواجها.

وهكذا انتهى اعتقاده بأن ما فعله أو قاله جرّ التغيير إلى حياتها. لم تكن تفكر فيه مطلقاً. لكن ماذا لو أحبت العناق؟ أي امرأة لم ترَ زوجها منذ فترة طويلة تكون عرضة للإغراء.

إنه زوجها السابق. وقد سألته لما كان هنا؟ لم تطلب منه المجيء.

لم تكن تعلم أن مارك آتٍ.

هل كان ذلك يعني...؟.

كانت الأنوار مضاءةً في المنزل حين أوقف الشاحنة كما لاحظ سيارة أخرى متوقفة في المرآب المفتوح.

إنها الشاحنة التي يستعملها الجد والجدة للتنقل إلى أي مكان يعرفان أن بيليندا قد تكون فيه.

يبدو أن تيم فتح خطه وقام باتصال واحد على الأقل في فترة بعد الظهر. لكن لم يكن لدى تيم ما يكفي من الوقت ليصل إلى المنزل على دراجته ويتصل بهما.

فك حزامي الولدين وحملهما إلى المنزل.

* * *

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة عندما رأى نواه أخيراً جنيفر تتوجه نحوه.

أنّى له أن يعلم أنها ستأتي؟ لم يكن واثقاً من ذلك إذ لم يلتقيا هنا منذ تلك الليلة الأولى. لعل أمنيته الصادقة جعلت الأمر يحصل. كان يعلم فقط أنه يحتاجها كثيراً وها قد أتت.

كان ينتظرها منذ خمس وأربعين دقيقة، منذ أن رحل الجدان أخيراً. غذّت الأنوار المضاءة في منزلها آماله بأنها في المنزل.

إن لم يكن زوجها السابق سيمضي الليلة هنا...

وتوجّهت نحوه كالمعجزة التي كانت عليها دائماً.

كان الثوب الصيفي الأبيض قد اختفى ليحل مكانه سروال جينز وسترة سميكة لأن الليل أصبح بارداً في الأسبوعين الماضيين. كانت قدماها تسحقان الأعشاب ومع اقترابها منه أطفأ أحد المصباحين تاركاً ضوءاً خفيفاً.

بدت متعبة كحاله هو.

قدّم لها كوب عصير وهو يقول: «كنت آمل أن تأتي».

- لم أكن واثقة من أني سآتي.

وأضافت بنعومة وهي تلف نفسها بالغطاء: «كنت أجادل نفسي في النصف الساعة الماضية».

بدأ قلبه يخفق بقوة في صدره. هل كانت تفكر بمارك؟

- هل كان الأمر بهذه الصعوبة؟.

أجابت بهدوء: «لم أشأ أن أزيد الأمور سوءاً بالنسبة لك ولتيم».

- كان والدا بيليندا هنا الليلة.

لم يعرف لما يخبرها بهذا.

لا فائدة من إنكار الأمر فكل خلية في جسمه تتوق للمسها. أراد أن يجعلها امرأة حياته.

- وكيف تقبلا الأخبار؟.

هزّ كتفيه قائلاً: «بشكل سيء طبعاً، لكن ليس كما توقعت. ربما لأنني واجهتهما بموضوع حشو رأس تيم وسيلا بأفكار عن أنها ما زالت حيّة وأنها ستعود إلى المنزل قريباً، وأني المذنب في رحيلها. أخبرا الولدين أني كنت أخيف أمهما وأدفعها للهرب.

وأطلق تنهيدة ملؤها السخط وتابع: «كانا يؤذيان ولديّ في محاولة لإبقاء ذكراها حيّة».

دسّت يدها في يده بحركة طبيعية تهدف إلى إراحته ففرح لذلك إذ ظن أنه خسر هذا الامتياز بعد ما حدث. وقالت: «لا عجب إذاً يا نواه أن يعاقبك تيم لمحاولة مساعدته على الشفاء».

- ولا عجب في أن سيلا كانت تخاف مني. لم أستطع معرفة السبب.

كان رأسه يمتلئ برائحتها الناعمة، والحنان البادي في عينيها وإحساس يدها بين يديه الخشنتين وتابع يقول: «لقد أثارا شجاراً اليوم أمام الأولاد. أخبرهما تيم عن التحري الخاص وأرادا أن يعرفا لما لم أستخدمه من قبل فاضطررت لإخبارهما».

وتوقف فجأة عن الكلام. لا يمكنه أن يخبر حتى جنيفر أن بيليندا تركته مع ديون هائلة بحيث لم يتمكن من دفع نفقات تحرٍّ خاص حتى سنة مضت. لكن تيم سمع هذا الكلام وعلم نواه أنه سيدفع ثمن زلة لسانه الناتجة عن الغضب لزمن طويل.

ولم ينفعه إفشاء السر. فقد رفض بيتر وجان تصديق كلامه إذ بقيا يتمسّكان بصورة بيليندا المثالية.

وقالت برقة: «يصدق الناس ما يريدون تصديقه أو لعل الحقيقة تختلف من شخص إلى آخر».

وفاجأها حين قال: «طلبا اصطحاب الأولاد إلى منتزهات غولد كوست لأسبوع. ألح بيتر وجان في الطلب. هما جدا الأولاد، والله يعلم كم احتاج لفترة راحة الآن. إنهم منهارون لأن تلك المرأة لا نغتري ليست بيليندا. إنهم يحتاجون جميعاً لفترة ترفيه وتسلية. آسف لأنني لم أخبرك من قبل».

سادت فترة صمت قصيرة قبل أن تقول: «لا بأس».

وأجاب بصوت خشن: «تصرفهما ليس عادلاً أبداً، لكن ما بيدي حيلة. فهما لا يصغيان إلي بمطلق الأحوال».

- كما قلت لك. يصدّق الناس ما يريدون تصديقه وحسب.

بدت جنيفر وكأنها تقرأ أفكاره إذ أضافت: «زوجي السابق نموذج حيّ على ما أقول. لقد مضت ثلاث سنوات على رحيله، وقد أقام علاقات متعددة منذ رحيله لكنه كان واثقاً من أني سأعود إليه، لأني لست على علاقة برجل آخر، فظن أن ذلك يعني أنني ما زلت أحبه».

ولم يستطع أن يمنع نفسه من سؤالها: «وهل أنت فعلاً كذلك؟».

نظرت جنيفر إليه ثم أشاحت بنظرها عنه وسحبت يدها من بين يديه قبل أن تتكلم: «إن كنت لا تعرف الإجابة فأنت أعمى».

حدة صوتها المفاجئة لم تزعجه، وتسارعت دقات قلبه وهو يقول: «يمكن للمشاعر أن تبعث من جديد حين نرى الشخص الذي كنا نحبه يوماً».

رطّبت شفتيها وهي تأخذ نفساً عميقاً: «أهذا رأيك بي وبنفسك؟ إن كنت قد انتقلت إلى هنا لتصبح بقربها...».

صحح لها بصوت أبح: «لإبعادها... كانت هذه ضربة الحظ الأخيرة. جعل حواي حياتي مزرية لكن كان عليّ السماح لهما برؤية الأولاد، فهما كل ما تبقى لهما منها».

وأخذ نفساً عميقاً قبل أن يطلق الاعتراف ويخوض أكبر مغامرة في حياته: «ومن ثم رأيتك وعلمت أني في ورطة».

عادت العينان المشعتان تنظران إليه أخيراً. تأملت ملامح وجهه ببطء وقد انفرجت شفتاها وثقُلت أنفاسها وهي تقول: «لم أكن يوماً المرأة التي تورّط الآخرين».

لاح طيف ابتسامة على وجهه وهو يسألها: «من يراوغ الآن؟».

واقترب منها أكثر محوّلاً التيار الدافئ بينهما إلى موجة حرّ تشعل قلبيهما.

عضت شفتها مبتسمة تلك الابتسامة الرقيقة المغرية التي تخبر الرجل ما يريده تماماً وقال: «هذا النوع من المراوغة...».

ونظرت في عينيه بعمق وارتفعت يدها تنتظر.

تنفّس بعمق ورفع يده شابكاً أصابع يديهما قائلاً: «نعم...».

وهمست تقول: «لا يمكنني التورّط معك إن كنت لا تزال متزوجاً في قلبك».

لقد توقع ذلك فمدّ يده الحرّة وأعطاها الأوراق التي وقّعها قائلاً بهدوء: «كان عليّ أن أخبرك قبل أن أرسلها. لقائي بك جعلني أرى الحقيقة. لا أستطيع التعلق بما هو ليس سوى ذكرى. جزء مني سيظل يحبها... لكنها رحلت. لا أستطيع أن أعيش نصف حياة من أجل تيم وجدّته. إن العيش في كذبة لا يساعد أحد. ولا يبقيها حيّة إلا في عقولهم».

قرأت أوراق الطلاق ثم أغمضت عينيها وهي ترميها من يدها وتقول: «لهذا السبب اشتريت الهدايا للأولاد».

أطلقت تنهيدة خفيفة وهي تقول: «يبدو أن كل ما يتعلق بنا فيه نوع من سخرية القدر. هل لهذا معنى ما؟».

اقترب منها أكثر وأمسك بيدها الأخرى قائلاً: «ما من جدول زمني يا جنيفر. وما من وقت مناسب أو طريقة مناسبة. الأمور تحدث مهما فعلنا. إما أن نتجاهلها ونندم لاحقاً أو نحصل على ما نرغب فيه كلينا، ونتقبّل العواقب».

حدّقت فيه بعينين لامعتين، ورطّبت شفتيها. لم يشعر بمثل هذه القوة

www.elromancia.com

وبهذه السعادة قط في حياته، كما يفعل عندما تنظر جنيفر إليه بكل هذا التوق.

تمتم بصوتٍ أبح: «أنا أريد العواقب جنيفر، وأريدك أريدك».

أجابت بصوت متقطع وقد أغمضت عينيها وارتمت بين ذراعيه: «نواه، لماذا جعلتني أنتظر كل هذا الوقت لتقول هذا؟».

كانت جنيفر تنتظره كل تلك المدّة. ومع أنه أدرك ذلك منذ الليلة الأولى، إلّا أنه سيثمّن كلماتها حتى آخر رمق.

عادا يغرقان في عناق دافئ حميم. وفتحت جنيفر عينيها بعد أن ابتعدت عنه قليلاً وابتسمت ابتسامة سرعان ما تحوّلت إلى ضحك عرف أنه سيحرص على الحفاظ عليه في المستقبل. وعاد يلامس ضفائر شعرها ويشعر للمرّة الأولى في حياته بجمال داخلي وهي تقول اسمه بحرارة وتلف ذراعيها حوله وهو يحيطها بذراعين محبتين ويهمس باسمها.

وفجأة قالت من دون مقدمات: «اضطررت إلى رمي زوجي السابق خارجاً. أراد البقاء عندي لكني أردته أن يرحل، فهو ليس أنت نواه».

وسألها: «هل أخبرته شيئاً عنا؟».

تجمّدت فجأة هي تسأل: «وكيف أفعل ذلك؟ لم يكن هناك ما أخبره به».

رفع رأسها إليه ونظر في عينيها وهو يسأل: «هل لا يزال في البلدة؟».

ردّت بهدوء: «قال إنه سيمكث هنا بضعة أيام ليرى إن كنت سأغيّر رأيي».

يا لسخرية القدر، فقد حاول هو بجنون على مدى ثلاث سنوات العثور على زوجته فيما عاد إليها زوجها السابق وهي لم ترده. قال لها: «حين يعود، أخبريه عنا».

فسألته بحدة وعصبية: «لأقول ماذا؟».

تمنى لو أنه أبقى فمه مطبقاً، لكنه لا يستطيع التراجع الآن فالضرر قد حدث. وتابعت تقول: «أننا لم نتمكن من الابتعاد لحظة عن بعضنا رغم أننا نعلم أن لا مستقبل يجمعنا! وأن الساعات المسروقة في المقهى أو اللقاء في

الحديقة ليلاً وأولادك على بعد بضعة أمتار هو كل ما لدينا ومع ذلك نتمسّك به؟».

أبعدت نفسها عنه بقوة، فحدّق فيها وقد قطب: «أهذا هو رأيك؟ أتعتقدين أني سأستغلك بهذه الطريقة بعد كل ما فعلته لي ولأولادي؟».

أجابت بحدّة: «هل قلت هذا؟ كنت حمقاء. أخبرتك أن لدي أسبابي للبقاء بعيدة ومع ذلك دخلت في اللعبة».

- اللعبة؟

أجل، اللعبة.

وكأن العناق الحار وكل ما حدث بينهما مرض تحاول تفاديه وغسل يديها منه وقال بأسى: «أتذكر ذلك. إذاً لِمَ أتيت الليلة؟».

تلاقت أعينهما بتحدٍ واضح وهي تقول: «أنت تعرض لماذا. لذا، لن أكذب عليك لأحافظ على كرامتي. أنا هنا لأني لم أتمكن مم التفكير بأي أمر آخر منذ عانقتني اليوم. لكن ما من مستقبل لنا معاً. أنت لست مطلقاً ولست أرملاً... وأنا...».

- لقد رأيت الأوراق. سوف أصبح مطلقاً في غضون شهر أو اثنين. أنا لا أستغلك جنيفر.

أطلقت ضحكة مخنوقة: «هذه ليست نقطة الخلاف هنا».

- ما هي إذاً؟

طرح عليها السؤال مع أنه يعرف الرد، وأردف: «جنيفر، أنا لا ألعب هنا. أنا أريدك في حياتي، وهذه ليست مجرّد نزوة. أنا أريدك أنت ولا أريد ولداً».

- لكني أريده نواه.

وفي غمرة حنق لم يشعر بأقوى منها في حياته، قال: «إذاً أنت ترين أني لا أكفيك؟ وأولادي لا يكفونك؟».

- أنت لا تفهم يا نواه فالأمر يتعلق بي. إنه ليس مجرّد أمنية نواه، بل جزء لا يتجزأ مني ولا أستطيع تغييره. لا يمكنني أن أسمح لنفسي بالوقوع

أكثر في حبك وإلا حولت حياتك إلى مأزق في نهاية المطاف. أولادك يستحقون أكثر من حب منقوص أمنحه لهم... وأنت تستحق امرأة أفضل من جنيفر التي لا تنجب لك الأطفال ولا تكف عن الرغبة في الحصول عليهم.

ووقفت على قدميها تطلق تنهيدة وتضيف: «ما كان يجدر بي المجيء إلى هنا. أنا آسفة، الكثيرون قدّ يتأذون من علاقتنا. حتى لو أردت علاقة جدية معي، فهذا لن يحصل. لن أسمح له بأن يحصل».

راقبها نواه تبتعد بخطى سريعة عازمة وقد بدا أنها تعني كل كلمة قالتها.

١٠ - أنت خطيرة

علمت جنيفر أن ثمة خطباً ما حين أتى نواه وحده صباح اليوم التالي قبل وصول ذوي الأولاد الآخرين بقليل. قال لها باختصار شديد: «صباح الخير جنيفر».

وبدأ بوضع الشريط اللاصق على النوافذ الغربية.

سألته مقطبة: «أين الأولاد؟».

أجابها: «مع جدّيهم، ألا تذكرين؟ أخبرتك ليلة أمس. أعذريني، سأبدأ عملية البناء الفعلي اليوم كما تعلمين، لذا سأضع الحواجز لمنع الأولاد من الاقتراب».

واستدار ومشى، فتابعته بنظراتها، غاضبة لا تستطيع التفكير: «هكذا إذاً؟ تأتي متأخراً ولا تجلب الأولاد لوداعي...».

قال وهو ما زال يمشي: «احتاج الأولاد للخروج والابتعاد من هنا».

أسكتها ذلك لبضع دقائق قبل أن تقول في النهاية: «فهمت».

النظرة التي رمقها بها كشفت نيراناً مخفية تحت رماد مصطنع، وقال بهدوء: «ما من أثر ليليندا يسعى وراءه بيتر وجان المنهارين».

هذه الجملة محت الصور التي كانت تتخيلها جنيفر عن الليلة الماضية وجعلتها ترتدّ خطوة إلى الوراء وتقول وهي تشعر أنها في المكان الخطأ: «سأفتقدهم».

قال بصوت قاسٍ كالخشب الذي يستعمله في بناء الشرفة: «عندما يعودون سيجدون ترتيبات أخرى بانتظارهم».

أجابته بحدّة حقيقيّة هذه المرّة: «وهل تسمح بأن تخبرني السبب؟».

لم ينظر إليها حتى وهو يضع الحواجز في مكانها: «أشكرك على كل ما أظهرته من لطف حتى الآن، لكني لا أستطيع أن أسمح لك بإيذائهم».

www.elromancia.com

عبرت الكلمات الحواجز بينهما وكأنها أسهم من نار، وعلمت أن كل ما سيقوله بعد ذلك سيكون كريهاً ولن تحبه ومع ذلك لم تستطع الذهاب.

قال وكأن الأمر لا يعني شيئاً: «سيلا ورودي يفكران بك كأم لهما، حتى أن تيم يعشقك وينظر إليك كمصدر للأمان. وكما قلت الليلة الماضية أنت لا تفكرين بالأمر حتى. تقولين إنك لا تستطيعين أن تحبيهم كما يستحقون».

وابتعد يضع المزيد من الحواجز على الطرف الآخر وهو يتابع كلامه: «سبق أن خسروا أماً. عليّ إبعادهم عنك قبل أن تزداد الأمور سوءاً».

ارتفعت يد مرتجفة إلى فمها وهي تقول: «أنا، نواه، أنا...».

لكنه هزّ رأسه قائلاً: «أعذريني. يجب أن أبدأ العمل الآن».

تهذيبه البارد كان حاجزاً أصلب بكثير من ذلك الذي وضعه.

استدارت جنيفر وعادت إلى داخل المنزل لترحّب بالأولاد الوافدين، أولاد تحبهم لكنهم لا يسكنون قلبها، إنهم فقط أولاد تعمل لحساب أهاليهم. وملأها شعور بالخسارة لدرجة أنها عجزت عن الجدال.

تيم المحبوح، وسيلا الرائعة ورودي الجميل الواثق. ونواه! لقد اتخذت قرارها ظناً منها أنه الأفضل للجميع لكنها شعرت وكأنها خسرت عائلتها مجدداً.

* * *

كانت الأضواء لا تزال مضاءة في منزل جنيفر.

جلس نواه على الشرفة الخلفية لمنزله يراقب الطيف المتنقل من غرفة إلى أخرى وهو كل ما يستطيع رؤيته من هذه المسافة. كان يشعر بالضياع من دون أولاده وبوحدة ما بعدها وحدة، يراقب منزلها كارهاً نفسه. لقد فعل ما عليه فعله، لكنه أحسّ بأنه منهار لإيذائها.

الندم لا يجدي نفعاً فقد انتهى الأمر. قرار جنيفر لم يترك له أي خيار. كان عليه إبعاد الأولاد عنها قبل أن يزداد الوضع سوءاً، لكن عليه أن يخوض صراعاً مريراً مع نفسه حتى يبقى مسمّراً في مكانه من دون أن يهرع إليها ويأخذها بين ذراعيه ويقطع أنفاسها إلى أن.. لكن أولاده يأتون في

المقام الأول. يمكنه أن يخاطر بقلبه لكن ليس بهم، ليس بعد أن فقد أمهم.

القرار اتخذ، لكن هذا لم يمنع حصول صراع في داخله. إنه يحب هذه المرأة إلى حد الجنون، يحب المرأة التي امتلكته واحتلت قلبه وروحه، لكنها لا تريده. لا تريد أن تمضي معه بقية حياتها، ولم يكن بوسعه فعل المزيد. أرادها إلى الأبد ولم يشأ ان يكون بينهما مؤقتاً لكنها لا تريده.

بل إنها تريده، لكنها مرتعبة فقط. تخشى ألا تكون على قدر المسؤولية. لقد أغفلت كل الصفات الرائعة التي تتمتع بها لمجرّد أنها لا تستطيع الإنجاب.

كان يعرف تماماً كم تحب أولاده فهي أم بالطبيعة، بالفطرة، لكنها أم لم تتقبل خسارتها بعد. وعليه هو أن يجعلها تدرك ذلك... أن يفتح عقلها وقلبها على احتمالات جديدة.

وجد نفسه أمام باب منزلها حتى قبل أن يدرك أنه اتخذ القرار، وقبل أن يعلم كيف يقنعها. كل ما كان يعرفه هو أن عليه المحاولة.

كانت الموسيقى الناعمة تملأ المنزل وأضواء الشموع المعطّرة تنير زواياه، وكأنها تتوقع مجيء الحبيب. لكنه ومن خلال زجاج النافذة استطاع أن يراها منحنية فوق الطاولة، متعبة تبكي بمرارة وكأن قلبها قد اقتلع من صدرها.

- جنيفر!.

شهقت واستدارت تمسح خديها لتجد نفسها بين ذراعيه وهو يقول لها: «صغيرتي، لا تبكي، لا أستطيع تحمّل دموعك!».

لم يتوقع أن تصمد واقفة على قدميها وهو يغمرها بمثل هذا الحنان. وشعر بذراعيها تلتفان حول خصره بقوة وبهجة عظيمة كاد يتألم لها فيما همست بصوت مشتاق حزين: «نواه، نواه».

رفع وجهها إليه ينظر في عينيها الحمراوين ووجنتيها المبللتين، ويشعر بالأسى لحالتها ويمنحها الاطمئنان والحنان اللذين تحتاجهما: «أعرف يا صغيرتي، أعرف. الأمر يتعلق بنا أنا وأنت، وأنا هنا جنيفر، ها قد أتيت».

رفعت نظرها إليه تتأمله، وتخلل أصابعها في شعره، تتعلق به وكأنه سيختفي إذا أشاحت بنظرها عنه.

لم تبدُ يوماً أكثر جمالاً من الآن. كان يعلم ماذا يعني لها، إذ لم تستطع إخفاء الأمر في خضم حزنها وخوفها من أن تخسره. إن لم تكن غارقة في حبّه تماماً فهي على وشك ذلك.

لكن الحب لم يكن جوهر القضية وهما يعلمان ذلك تماماً.

لم يكن الوقت مناسباً للإصرار لكن عليه أن يبدأ من مكان ما فاستهل الحديث قائلاً: «أرسلت الأوراق اليوم، أعلم أن هذا ليس جوهر المشكلة...».

تابع حين شعر بتشنجها: «لا أظننا قادرين على رؤية الأمور بوضوح إلى أن نمضي بعض الوقت وحدنا معاً. لم يكن لدينا سوى الأولاد والمشاكل منذ التقينا يا جنيفر. فالماضي قد ترك آثاراً بالغة في كلٍّ منا».

همست تغمره بشدة: «أعلم وقد كنت أمقت ذلك».

- وأنا أيضاً. لكننا الآن وحدنا ولدينا أسبوع كامل. دعينا نستغل الوقت من دون وعود أو عهود. لنكن أنا وأنت وحسب، نفعل ما نشاء ولو لمرّة واحدة.

بدا الشك في عينيها إذ لم تكن واثقة مما يريد.

فابتسم قليلاً وهو يقول: «لا أقصد ما فهمت. لكني أريد أن أصطحبك لتناول العشاء وفي نزهة، لم أركب دراجتي النارية منذ انتقلنا إلى هنا».

ابتسمت له: «لم أكن أعلم أن لديك واحدة».

- ولدي خوذتان. هل تخافين ركوب الدراجة النارية؟.

- لم أجرّبها سابقاً لكني لطالما رغبت في ذلك.

همس لها بعصبية من جراء المشاعر التي يحاول جاهداً إخفاءها: «رافقيني غداً. سوف نذهب إلى المنتزه بعد العمل ونستمتع بوقتنا. أيام الجمعة ليس لديك سوى أولادي للاهتمام بهم أليس كذلك؟ إذا غداً يوم عطلة. دعينا نمضي وقتنا معاً، أنا وأنت وحدنا».

لم تتردد جنيفر وأومأت برأسها بعينين مشعتين.

- أريد أن أمضي وقتاً معك من دون أن أقلق بشأن أي أمر آخر.

كادت نبرة صوته تخيفه فهذا يعني له الكثير.

وعاد يقول: «أنا وأنت فقط».

همست تقول: «هذا الأسبوع فقط إلى حين عودة الأولاد إلى المنزل».

أرادت طمأنته بقولها هذا لكن كلماتها أرسلت موجات من الألم في قلبه وجسمه كله. وأومأ لها غير واثق من ثبات صوته في حال تكلّم.

- فتشت عن مراكز العناية بالأولاد في المنطقة من أجلك. ثمة ثلاثة منها في بالينا وواحد في إيفروود، وهي لا تبعد عن هنا سوى ربع ساعة فقط.

صدمه كلامها أكثر مما كان يتصوّر. فهذه هي جنيفر، ستحاول مساعدته ولو على حساب خسارتها الأولاد الذين تعشقهم. قال لها بهدوء: «شكراً».

لكن سحر الليل كان قد اختفى فانسحب من بين ذراعيها وأضاف: «سآتي لآخذك عند الساعة العاشرة تقريباً. اجلبي سترة سميكة».

عاد الاضطراب يتماوج في عينيها، لكنها هزّت رأسها وقالت: «إني متلهفة للأمر. لطالما ظننت أن الأمر خطير، ركوب الدراجة النارية».

وعلى الرغم من الألم ضحك وتلمّس ذقنها وهو يقول: «أنت أيضاً خطيرة».

- أنا؟ خطيرة؟

ضحكت وهي تضيف: «لم يقل لي أحد ذلك من قبل».

تمتم يقول: «إذاً هم لا يعرفونك جيداً».

قالت بصوت ضاحك ناعم مليء بالوعود: «خطيرة، أحب ذلك، أحبه جداً».

إذا بقي عندها فترة أطول لوصلت الأمور إلى حيث لا يعرف نهايتها. لكن عليه أن ينتظر، عليهما أن يمضيا فترة خطوبة غير تقليدية ليجعلها ترى أنهما ينتميان إلى بعضهما البعض وأنهما يستطيعان تخطي الصعوبات التي تراها مستحيلة. لكنه وفي هذه اللحظات قد يعطي أي شيء لمجرّد أن ينعم بلمستها ويتأمل وجهها... وجاء صوته حاذاً وهو يقول: «أنت تشكلين

www.elromancia.com

خطورة كبرى على راحة بالي، ويستحسن بي الذهاب».

أجابته بإغراء هامس واضح: «ليس عليك أن تفعل».

- يا جنيفر، يجب أن أرحل فما عدت أحتمل.

مات الضحك في صوتها هي تنظر إليه وترى الحقيقة في كلماته، ثم ابتسمت وهي تقول: «أنا سعيدة جداً لأنني لست الوحيدة التي ما عادت تحتمل. بدأت أظن أني عاجزة عن التفكير إلا بك أنت».

وسرت في أوصالها رعشة وهي تضيف: «أراك غداً».

ودّعها وابتسمت في إثره وهي تراقبه يقفز من فوق السياج الفاصل.

من أجل نواه وأولاده، ستستمتع برفقته لهذا الأسبوع فقط وتتركه يذهب.

سارع إلى باب بيتها قبل العاشرة من صباح اليوم التالي وهو يبدو رائعاً ومغرياً بسروال الجينز الأسود، والحذاء والسترة الجلدية.

طرق الباب وابتسم لها وهو يمد يده بالخوذة وسألها: «جاهزة؟».

التقطت أنفاسها حتى أنها تمكنت من أن تضحك وهي تسأل: «إلى أين نذهب؟».

قال يغمزها: «سترين».

نظر إليها من أعلى رأسها إلى قدميها موافقاً على سروالها الجينز لكنه عبس غير مؤيد لسترتها: «ستشعرين بالبرد أثناء ركوب الدراجة».

ومدّ يده إلى الصندوق الأسود الموجود عند مؤخرة الدراجة وسحب سترة جلدية شبيهة بسترته.

- إنها سترتي القديمة منذ أيام الجامعة.

وأضاف وكأنه لم يتنبه أو يرى أنها ظنتها لبيلندا: «هل ترين تلك العبارات السياسية عليها؟».

رأتها وابتسمت ببطء وهي تتخيّله ذاك الشاب المشاكس الذي يركب دراجته النارية...

- هل ما زلت تشعرين بالخطورة؟.

ارتدتها وأقفلت السحاب وقالت بتحدٍ: «لنذهب».

وقفزت وراءه ووضعت الخوذة على رأسها ثم لفت ذراعيها حول خصره بحماسة فائقة. إنه موعدها الأول منذ عشر سنوات أو أكثر.

صرخ وهو يهدر فوق دراجته: «تمسكي جيداً».

شعرت وكأنها عادت فتاة مجدداً، فصرخت وتمسكت به بقوة مرحّبة بالفكرة للمرحلة الحالية.

سارا على الطريق وتوجها شمالاً متجاوزين بسهولة الزحمة. في الماضي، كانت تشعر بالحسد من الحرية التي يشعر بها راكبو الدراجات. وحتى ذلك اليوم، وحتى دخول نواه في حياتها لم تكن تدرك أنها تعيش نصف ميتة. أما الآن فهي حيّة فعلاً، تعيش حلماً مع رجل أحلامها. ومن ذا الذي كان يشك في سعادتها؟

ناداها من فوق هدير المحرّك: «هل الجو بارد؟».

- كلا، بل هو رائع.

شعرت بضحكاتها تهز كيانه وبابتسامته مع أنه لم يكن يستطيع رؤيتها. من يكترث إن كانت متفائلة؟ فالشعور بقربه يكفي لجعلها تبتسم لسنوات.

قادا بسرعة إلى أن وصلا إلى طريق تحيط بها رمال الشاطئ من جهة والتلال من الجهة الأخرى.

خلال سنتين من الإقامة في هينشكليف لم تأت إلى هنا يوماً ونادت تسأله: «ماذا هناك في الأعلى؟».

- سترين.

خفف السرعة وأحبت الهواء البارد المنعش والغابة المعتمة وشعور الغموض والمغامرة بسبب جهلها للمكان الذي تتوجّه إليه مع نواه. مجرّد البقاء معه وحدهما من دون مراقبة أعين الآخرين، وتمضية أوقات ممتعة من دون التفكير في الثمن.

كادت تشعر بأنها شابة من جديد وشعرت بأنها سعيدة.

وبعد اجتيازهما التلة الأولى، أوقف نواه الدراجة فقفزت جنيفر عنها

www.elromancia.com

ونزعت الخوذة عن رأسها وعيناها تتسعان بهجة: «ما هذا المكان؟».

ضحك لها نواه وسألها: «هل أعجبك؟».

- طبعاً.

وسألته وهي لا تزال تتجول وتتأمل المنتزه الخشبي القديم: «وكيف وجدته؟».

ضحك نواه واستدار ليركن الدراجة النارية وقال: «ظننت أنك قد ترغبين بإلقاء نظرة على المكان».

لاحظت أنه تجنّب الإجابة عن سؤالها لكنها أدركت السبب بعد لحظات. ولم تسأل مرّة أخرى، فلِمَ تفسد النهار بالعودة إلى أسباب بحثه عن زوجته المفقودة؟.

- هل ما زلت ترتدين السترة؟.

طرح السؤال بنبرة هادئة أخبرتها أنها كانت محقة إذ أراد أن ينسى وكذلك هي. لم يرغبا في التفكير بأي شيء يذكرهما بأن وقتهما معاً سيكون قصيراً جداً.

هزّت رأسها وخلعت عنها السترة وأعطته إياها: «هل تشعث شعري بسبب الخوذة؟».

- هزّي رأسك قليلاً.

واقترب منها بعد أن خلع سترته وأردف: «دعيني أسوّيه لك».

وتخللت أصابعه ضفائرها تحلّها حتى انفلت شعرها بأكمله على كتفيها وقال دون أن ينزع عينيه للحظة عنها: «هكذا أفضل».

كادت تذوب بين يديه وتحت تأثير لمساته التي تشعل توقها وتزيد فرحها.

وبعد دقائق طويلة من الصمت المحموم، سألها: «هل تودين تناول القهوة أم الشاي أم أي شيء آخر؟».

لم تكن بحال أفضل منه حين أومأت برأسها من دون أن تنطق بكلمة.

وضع ذراعه حول كتفيها ودخلا معاً إلى المقهى تغلي في قلبيهما جمرات تحت الرماد وتوقظ في عقليهما خوفاً من أن يكسر أي منهما القيود التي سبق

واتفقا عليها.

كان طعم الشوكولا الساخن مختلفاً هذه المرّة على وقع الأحاديث والأحلام والطموحات التي تشغلهما والمخططات حول الشرفة أو حول أي أمر آخر لا يعيدهما إلى دوامة الصمت الثقيل الراقد على فوهة بركان.

تحدثا إلى أن قاطعتهما النادلة التي اقتربت منهما مبتسمة: «هل ترغبان بطلب شيء آخر، شوكولا ساخن آخر أم ربما غداء؟».

نظر نواه إلى ساعة يده ورفع حاجبه ثم نظر إلى جنيفر قائلاً: «تجاوزت الساعة الثانية عشرة والنصف. ماذا تريدين أن تفعلي؟ البيتزا الكبيرة هنا لذيذة جداً».

تفاجأت لأنها تشعر بالجوع وأومأت برأسها.

- سوف يتطلب إعدادها عشرين دقيقة، هل تودّين زيارة متجر الأغطية؟.

كانت يدها قد اندست في يده وهي تقف على رجليها.

تجولت جنيفر في المتجر مرّتين، ووجدت قطعتين فأخذتهما إلى الصندوق بابتسامة عريضة وفخر وسعادة لكن نواه كان قد سبقها وسحب بطاقة اعتماده قبل أن تمدّ يدها إلى حقيبتها. وكان يحمل في يده الغرض التي تضيّعه دوماً: «قمع الخياطة».

في الواقع جلب عشرة منها. ضحك وغمزها فشعرت باحمرار وجنتيها فهو يعلم لما كانت تخز أصابعها. كان يتولى المسؤولية اليوم وقد أحبت إحساس الدلال الذي تنعم به.

وفيما هما يعودان إلى المقهى، شعرت جنيفر فجأة أنها تريد إطلاعه على أمر ما فقالت: «أعدت مارك إلى نيوكاسل البارحة».

اشتدت ذراع نواه حول خصرها واستدار ليواجهها: «وهل أخبرته عني؟».

ألقت راحة يدها على صدره وقالت: «أخبرته أن رجلاً عنيداً يسكن بالقرب من بيتي مع أولاده الثلاثة الرائعين يجعلون العودة إليه مستحيلة».

www.elromancia.com

ابتسمت وهزّت كتفيها قبل أن تتابع: «لم يكن يريد العودة فعلاً على أيّ حال. كان ضائعاً وظن أني الملجأ الذي سيهتم به إلى أن يصبح مستعداً للرحيل مجدداً طبعاً».

أوقفها نواه وهو يفكر بكلماتها. كان هناك خطب ما... قطب حين أدركه. لقد أخبرت زوجها السابق عنه بالأمس أيّ قبل أن يأتي هو إليها. أخبرت مارك عنه مع انه أوضح لها أنه سيخرجها من حياتهم.

وللمرة الأولى برقت شرارة الأمل في داخله. هل هذا يعني أنها تريده لأكثر من هذا الأسبوع؟ أيعني أنها أخرجته من حياتها من أجله؟

- نواه؟.

طبع على جبينها قبلة خفيفة فشعر بأنها ترتجف وتأخذ نفساً عميقاً: «أنا سعيد لأن هذا هو شعورك».

لم يكن ذلك الوقت المناسب ليقول كل ما يفكر فيه، فهي ليست مستعدة لسماعه. ستخبره في الوقت والمكان المناسبين. عليه أن يؤمن بذلك لأنها خطفت قلبه وروحه ومشاعره كلها. التخلي عنها لم يعد خياراً ممكناً حتى بالنسبة للأولاد. فأولاده الثلاثة بحاجة إليها بقدر ما يحتاجها هو.

والآن عليه أن يجعلها ترغب في أن تكمل حياتها معه أكثر ما ترغب في إنجاب طفل منها.

ونطق قبل أن يفكر في كلماته جيداً: «ما الذي قاله مارك ليجعلك تشعرين أنك لن تكوني كفوءة لي وللأولاد؟».

١١ - عودة الماضي

حدّقت فيه جنيفر تسأله: «ماذا؟ مارك».

قطّبت جبينها وابتعدت عنه تشعر بالغربة والخداع: «لم تتمكن من الانتظار حتى لبضع ساعات، أليس كذلك؟ ظننت أنه كان يفترض بنا الاستمتاع بوقتنا اليوم، والاستمتاع بالوقت طوال الأسبوع. لكنك تدفع الأمور نحو ما أخبرتك سابقاً أنه مستحيل!».

وصلت النادلة إلى الباب ونظرت إليهما للحظة قبل أن تقول بابتسامة: «الغداء جاهز».

عادا إلى داخل المقهى من دون ذلك الحنان الذي ساد بينهما قبل قليل. ووجدت نفسها تتحسّر على ما عاشته في الساعات القليلة الماضية. لقد وعدها بأسبوع...

وضعت النادلة البيتزا الساخنة أمامهما على الطاولة مع سكينين وشوكتين قائلة: «استمتعا بالوجبة».

ابتسم نواه لكنه شعر بالتوتر. وما أن رحلت حتى استدار نحو جنيفر بعينين من نار وقال: «أخبريني يا جنيفر، أخبريني ما الأمر المهم الذي قاله لك ليجعلك تقضين على فرصتنا لتمضية حياتنا معاً؟».

لم تكن هناك فائدة من النكران عن هذه المرحلة، فنواه يعلم أنها تريد البقاء معه. لم تكن لتعانقه أو تلمسه بحب لو أنّ قلبها ليس مشغولاً جداً بحبه.

- لم يكن مارك، لم يكن مارك إطلاقاً.

كانت تشعر بالارتجاف وهي تردف: «لم يكن يكترث بشأن الحصول على

www.elromancia.com

مزيد من الأولاد، ولم يكن يأبه لوضعي وعجزي عن الإنجاب. السبب الوحيد الذي جعله يهجرني هو أنني قدّمت كودي عليه ولم يحتمل هذا الشعور الدائم باحتلال المرتبة الثانية».

أعادت قطعة بيتزا إلى صحنها وأضافت: «حاول العودة إليّ بعد وفاة كودي ولم يتفهم لما لم أرحب بعودته. كان يحبني كما قال، لم يشأ فقط أن يحلّ ثانياً ولو لمصلحة ابنه المريض ذي السنوت الثلاث. أسعده ألّا يكون لدي أولاد آخرين!».

بعد صمت طويل قال نواه: «لا تحتقريه لمجرد اختبائه من درب الحقيقة أو لأنه لم يعرفك جيداً. لعله أحبك بطريقته الخاصة لكنه لم يكن ناضجاً بما يكفي ليدرك أهمية تقديم كودي عليه. أحياناً يختار المرء الهروب بدلاً من البقاء ومواجهة الواقع الذي يجبره على إدخال تغييرات في الحياة».

سألته بنبرة مليئة بالعاطفة: «هل هربت يوماً من بيليندا؟ لا أصدق أنك كنت لتترك أولادك».

منحها نصف ابتسامة: «شكراً على الثقة، لكن ثمة طرق عدّة للهرب من دون الرحيل جسدياً. تعلّمت أن أكف عن دفن رأسي في الرمال بعد فوات الأوان. لم أنضج إلّا حين تركت وحيداً مع ثلاثة أولاد لم يدخلوا المدرسة بعد، وجبال من الديون التي لم أستطع سدادها لأني مضطر للبقاء مع الأولاد. عندئذ فقط أدركت أني لطالما أحببت الصورة التي كوّنتها عنها في صغرنا وفي سنوات زواجنا الأولى. لم أشأ مواجهة مدى عمق اكتئابها لأن ذلك لا يتناسب مع الصورة التي أريدها لها».

وسألته على مهل: «لهذا السبب لم تطلقها حتى الآن، أليس كذلك؟».

هزّ كتفيه وردّ: «ثمة حملٌ ثقيل من الشعور بالذنب. بدأت الأمور تسوء حين حملت برودي. لم تشأ إنجاب طفل آخر بعد فترة قصيرة من إنجاب سيلا. وحين طرحت فكرة الإجهاض أخذت الأمر على محمل شخصي بدلاً من أن أدرك أن الأمر كان بمثابة صرخة استغاثة. كانت أماً رائعة ولم أفهم لما هي عاجزة عن التأقلم مع ثلاثة أولاد كما مع اثنين. كانت تفعل كل شيء من

أجلهم وأنا أعمل جاهداً لدفع الفواتير. وكنت أعتقد أن الأمور يجب أن تسير على هذا النحو».

- أهذا السبب يلومك حماك على اختفائها؟.

- كان عليهما أن يعرفا أني أتنكر للواقع. كانت بيليندا تتصل بأمها كل يوم وتأخذ الأولاد لزيارتها ثلاث مرات في الأسبوع. لا بد أنهما عرفا حقيقة مشاعرها أكثر مني، لأنني لم أكن أصغي، لم أشأ أن أعرف».

نظرت في عينيه فرأت تصميماً، وعزماً خفياً. وسألته: «لِمَ تخبرني بذلك الآن؟».

ظلت عيناه مسمّرتين على وجهها: «إذاً ها انت تعرفين الحقيقة عني. لا أشكل جائزة عظيمة لأي امرأة وسأرتكب المزيد من الأخطاء. وقد رأيت ما يكفي منها في البداية. كنت أنهار عندما التقينا، فلولاك أنت وجو لضعت أنا والأولاد».

وأخذ يديها بين يديه وأضاف: «لكن هذا ليس السبب في رغبتي بتمضية حياتي معك. تعلمين ذلك».

لم يشح نظره عنها للحظة وهو يتابع: «تزوجيني جنيفر ليس من أجل الأولاد وليس لأني أحتاجك بل لأنك تريدين تمضية بقية حياتك معي، ولأنك تحبينني بقدر ما أحبك».

سرت رعشة في جسدها وصلت حتى عظامها، واغرورقت عيناها بالدموع وعجزت عن التنفس، فالأحلام والكوابيس كانت تتعانق، والإغراء والخوف تشابكا في داخلها. وتلعثمت تقول: «لا أستطيع، لا أستطيع وحسب. أنا آسفة لكني أخبرتك أني لا أستطيع ذلك».

بدا أن نواه لم يشعر بالإساءة أو الأذى أو الدهشة بل سألها بابتسامة ماكرة: «فاجأك السؤال قليلاً، أليس كذلك؟ لم اكن أنوي طرحه عليك قبل نهاية الأسبوع».

أجابت من دون ثبات: «ستكون الإجابة هي ذاتها الآن أو لاحقاً».

سأل بنبرة هادئة: «هل تقولين إنك لا تحبينني؟».

لم تستطع أن تحدد ماهية شعورها في الوقت الراهن. جلّ ما تعرفه هو أنها لا تستطيع الزواج. وهزّت رأسها عاجزة.

سأل بنظرات ثابتة على وجهها: «أتعرفين حقيقة مشاعرك؟».

ورأى الاضطراب جلياً على ملامحها، فأردف: «أعتقد أنك تكترثين للأمر جنيفر. أعتقد أنك تخافين مشاعرك لأنها قد تؤذيك كثيراً».

تلعثمت وهي تجاهد لحبس دموعها: «أخبرتك لما لن أتزوج مجدداً».

لم تذرف دمعة واحدة منذ أتت إلى هينشكليف... إلى أن أتى رجل صريح مع ثلاثة أولاد رائعين ودخلوا من باب منزلها الخلفي، فشعرت بأنها تبكي منذ ذلك الوقت.

وسألها من دون أن تفارق عيناه وجهها: «قلت إنك لن تتزوجي من أجل الأولاد أو الحب لأنك إن أحببت رجلاً فسترغبين في انجاب أطفال منه. فهل تريدين طفلاً مني جنيفر؟».

أجل! أجل! أكثر من أي شيء في العالم!

ابتلعت ريقها بصعوبة وقد صدمتها الحقيقة فالسؤال وإجابتها غير الواعية جعلاها ترى حقيقة أبعد من هذا الطلب.

الحب! كانت تحبه طيلة ذلك الوقت، وربما من اليوم الأول لكنها رفضت الاعتراف بالأمر لأن تلك اللحظة لا مفر منها، لحظة تحطيم أوهامها. الأسى كان متربصاً بها جاهزاً للانقضاض عليها كوحش.

أحبته أكثر مما أحبّت أي رجل في حياتها، وكانت تعشق أولاده. كانت تحبّهم بقدر ما أحبت كودي.

هل يمكن للأمر أن ينجح؟ هل ستتمكّن من جعلهم جميعاً سعداء؟ هل يمكن أن تكون أماً لأولاده، أم أنها ستؤذيهم بما لا تستطيع تغييره؟.

هذه العائلة الجميلة تستحق أكثر من مجرد بديل... وإذا لمسها الآن، وإذا قال إنه يحبها مجدداً فسوف...

تنهار!

إنها الكلمة التي سمعت جو يقولها تلك الليلة عند حديثه مع نواه، وهي

مناسبة أكثر بكثير مما كانت منذ أسبوع مضى. كان جو يعرفها جيداً، ويعلم أن هذا يعني لها الكثير.

لأن نواه وأولاده الرائعين أصبحوا عالمها مما أرعبها.

- جنيفر؟

جاء صوته رقيقاً متفهماً فهدأ اضطراب أفكارها: «ليس الأمر مستحيلاً كما تظنين يمكننا إنجاح ذلك».

لم تستطع الكلام بل هزّت رأسها فيما تابع هو يقول: «فكري في الأمر جنيفر. لمَ لا يمكن للأمر أن ينجح لنا؟ لِمَ لا يكون الحب كافياً؟ أعلم أنك تحبينني وتحبين أولادي».

تفكر؟ لم يكن هناك ما تفكر فيه سوى حبها لنواه وخسارته. أجل، إنها تحب أولاده لكن ليس بقدر ما يستحقّون... كانوا يستحقّون أماً حقيقيّة، وليس امرأة بديلة تجعل منهم تعويضاً عن أولادها...

دفع بقطعة البيتزا غير المأكولة جانباً وهو يراقب وجهها الشاحب الخالي من التعابير. لقد أفسد الأمر. لمَ لم ينتظر؟ لو أنه منحها أسبوعاً...

لم يعلم ماذا يتوقع عندما طَرح عليها السؤال عن إنجاب طفل منه، لكن النظرة التي علت وجهها تركته عاجزاً عن الكلام؛ نظرة فيها مزيج من الشوق الحزين والإحباط.

لقد فات الأوان. كان يعلم أن ذاك الشعور بالعجز سوف يلازمها، تماماً كما يلازمه الشعور حيال اختفاء بيليندا. لن يتمكّن من أن يفهم تماماً خسارتها، وهو أب لثلاثة أولاد أصحاء.

كان عليه التريث قبل التكلم من دون تفكير. كل ما قامت به جنيفر هو العطاء من دون سؤال وها هو يرمي حلمها المستحيل في وجهها وكأنه قادر على إحداث معجزة.

كانت النظرة على وجهها تعبّر عما في داخلها. كانت جنيفر تحبه بشكل أعمق مما أظهرت له حتى اللحظة. بات يدرك ذلك الآن، تماماً كما تدركه هي. وهي تحب أولاده الذين يعشقونها.

كلا، الحب لم يكن جوهر المسألة.

يمكن لهم أن يصبحوا عائلة واحدة، إن سمحت بذلك. لكن تغيير رأي ترسّخ في داخلها لا يمكن أن يحصل في ساعة واحدة. كان أحمقاً لمعالجته الموضوع على هذا النحو، لكن مشاعر الحب والتوق طغت على المنطق لديه. لم يكن يحتاجها بقدر ما يرغب في جعلها سعيدة، تلك الجنيفر الجميلة المعطاءة.

فتح فمه ليقول ما يخفف به ثقل اللحظة ويمنحها بعض الوقت لكن هاتفه رنّ تلك الرنّة التي خصصها لاتصالات الشرطة به. تيم! سيلا! رودي!.

أجاب على الهاتف بنبرة متوترة: «فريد، ما الأمر؟ هل الأولاد بخير؟».

لكن ما سمعه أصابه بالبرودة في جميع أنحاء جسمه.

كانت ضائعة في أفكارها، ولاحظت بشرود أن نواه يتحدث إلى أحدهم فاستدارت تمنحه بعض الخصوصية.

عدم التفكير لم يكن خياراً مطروحاً إلا إذا أصيبت بفقدان الذاكرة وهو أمر بدا مغرياً في تلك اللحظة. لتتمكّن من نسيان كل ذاك الألم... هل تريدين نسيان نواه؟ ونسيان الأولاد؟.

عائلة برانيغان غيّرت هدوء طباعها وحياتها المملّة للأبد. كانوا يتحدّونها ويجعلونها تفكّر وتتصرّف بطرق لم تعرف أنها جزء منها. كانوا يحتاجونها كثيراً مع أنها أعطيت أكثر بكثير مما أعطته لهم. ونواه... أغمضت عينيها تواجه العواطف التي تهدّد باكتساحها. لو أنها فقط...

- جنيفر.

الصدمة في نبرة نواه جعلتها تقفز من مكانها وقطعت حبل أفكارها. رفعت نظرها إليه فصدمها شحوب وجهه وبرودة عينيه وسألت: «نواه؟ ما الأمر؟ هل الأولاد على ما يرام؟».

لم يجب على الفور، لكنه لم يتعمّد ذلك. وتساءلت ما إذا سمعها أصلاً. وأخيراً قال بنبرة بطيئة ضائعة: «وجدوا بيليندا».

شعر نواه بأنه مريض. لم يعرف ماذا يقول لها بعد تلك الجملة الوحيدة. ماذا لديه ليقوله؟ قال فريد: «ثمة إشارات إيجابية نواه. لقد وجدوا زوجتك. لا يمكنني قول المزيد على الهاتف. لا يفترض بي قول ذلك كله لكني أريدك أن تكون مستعداً. جماعة سيدني هنا، لكني أقنعتهم بالسماح لي بمعالجة الموضوع أولاً. سوف أكون بانتظارك في منزلك مع كل التفاصيل».

لقد وجدوا زوجتك.

الكلمات التي صلّى طويلاً وكثيراً لسماعها، قيلت له وهو يطلب جنيفر للزواج. فأي وقت قد يكون مناسباً أكثر؟.

بالكاد لمسته جنيفر. كانت تضع يديها على خصره بدلاً من صدره كما فعلت طيلة الصباح. لمسة عادية، تلمسه وكأنه زوج امرأة أخرى...

ماذا لو كان كذلك فعلاً؟.

كاد يتقيأ لمجرد ورود هذه الفكرة في رأسه. كان ليسرّ من أجلها ومن أجل بيتر وجان والأولاد، لكن ومع أنه لا يزال يحب بيليندا إلّا أنه لم يعد ذلك الرجل الذي كان عليه قبل ثلاث سنوات. لقد كبر وتغير قلبه الذي أعطاه الآن لجنيفر.

لكن إذا أرادت بيليندا الاستمرار بزواجهما والاحتفاظ بعائلتها فستنسحب جنيفر بهدوء وتختفي من حياته.

لكنه كان واثقاً نوعاً ما من أن زوجته لم تعد حيّة. إيمان بيتر وجان هو ثقة عمياء من والدين لا يستطيعان العيش بعد ابنتهما الصغيرة. لكن إن كان متأكداً من أمر واحد حول بيليندا فهو أنها لن تتخلى أبداً عن أولادها.

وما كانت لتتركني وحيداً أيضاً من دون أي كلمة!

كان شبه مذهول وهو يركن السيارة أمام منزله. كان ضائعاً في ماضيه وقد قاد الدراجة قرابة الساعة من دون أن يقول كلمة واحدة لجنيفر.

كان وجهها حين نزعت الخوذة شاحباً وكأنها تقاوم الإحساس ذاته الذي لديه. فقال: «جنيفر...».

قالت بنعومة: «فريد ينتظرك».

قال لها بيأس لم تحتمل مقاومته: «ادخلي معي، أحتاجك».

تغيّرت ملامح وجهها قليلاً وهزّت رأسها وأشارت إليه بالتقدم أولاً.

وجه فريد المتجعد الصادق بدا متعباً وحزيناً وعلم نواه ما عليه أن يقول قبل أن يقوله.

- إنها ميتة، أليست كذلك فريد؟.

أتت كلماته خالية من أيّ روح أو عاطفة.

قال فريد وهو يرمق جنيفر: «دعنا ندخل نواه. ثمة الكثير ليقال».

تبعت جنيفر الرجلين من دون أيّ كلمة أو تعبير على وجهها. بدت وكأنها منقادة، كأنها مجرّد قارب يجرفه التيار وجلست عند الطرف الآخر من غرفة الجلوس الواسعة تنظر إلى الخارج.

لو صرخت بأعلى صوتها لما كان احتجاجها على وجودها هنا أكثر وضوحاً، لكنه لم يسمح لها بالذهاب. وسواء أحبت ذلك أم لا، كانت متورطة عاطفياً في هذه المسألة.

راح فريد يثني القبعة بين يديه، وينظر إلى نواه ثم يشيح بنظره عنه: «أجل إنها ميتة. أنا آسف نواه. وجدوا جثتها قبل بضعة أسابيع، لكن تحاليل الحمض النووي تثبت بشكل قاطع أنها زوجتك».

كان صوته غريباً وهو يسأل: «أين وجدت؟ ولماذا يظنون أصلاً أنها بيليندا؟ هل... هل تركت رسالة ما؟».

وظل السؤال الذي لم يطرحه معلقاً مع الهواء. هل انتحرت؟ هل كانت تكره حياتها إلى هذا الحد؟.

تنهد فريد وقال: «كلا لم تفعل. وصلت رسالة من الشخص المجهول الذي قتلها».

رفع رأسه إلى الوراء بسرعة شعر معها بألم في رقبته وشعر باقتراب جنيفر منه وأحسّ بذراعها حول كتفيه لكنه لم يتمكن من التفكير فيها الآن.

- قتلت؟ بيليندا...؟.

أراد أن يتقيأ مجدداً. كل تلك السنوات كان يلومها ويكرهها وهي...

- كلا، بني. لم يكن قتلاً متعمداً.

سارع فريد يضيف: «وفقاً للرسالة صدمتها سيارة وتسببت بقتلها. يبدو أنّ الفاعل أنبه ضميره وإلا لما بعث برسالة تدلنا على مكان دفن زوجتك».

سأل نواه بحدّة: «ودفنت؟».

أومأ فريد برأسه: «وجدت في مكان ما جنوب غرب دورال. كانت لا تزال تضع خاتم الزواج وأكدت فحوصات الأسنان والحمض النووي هويتها. إنها زوجتك».

- دورال، أنت تعني...

خرجت الكلمات من فمه بلهاء حمقاء تافهة. وفقاً للتواريخ التي ذكرها السائق، فقد قتلت يوم اختفائها. لم تهرب بل كانت قريبة من مركز التسوق. لابد أنها ذهبت في نزهة بدلاً من التسوق. كانت عند التقاطع عندما صدمها السائق.

- نعتقد أنه مجرّد شاب يقود بسرعة ولم تحظ بفرصة للنجاة.

هزّ فريد رأسه ثم أضاف: «إنها منطقة معزولة نوعاً ما. لكن ومع ذلك، كيف تمكّن من إدخال الجثة، أعني زوجتك في السيارة وحملها بعيداً من دون أن أحد، فهذا ما لا أستطيع تصوّره...».

قاطعته جنيفر بحدّة: «فريد».

فقال: «أنا آسف نواه، كان هذا غبياً من قبلي».

غبي؟ بل طبيعي... كان نواه يفكر في الأمر ذاته.

بيليندا لم ترحل، بل مجرّد غبي أحمق يقود بسرعة مزّق أوصال عائلته.

كان كل شيء يدور حوله ببطء ومع ذلك بدت أنفاسه سريعة ومتقطعة بحيث لم يستطع التحكم بها. شعر بعقله أشبه بصفحة بيضاء فارغة فيما ظلت الأسئلة تطرح نفسها وتظهر من أعماق الظلمة. لم يكن يشعر بسوى لمسة جنيفر وأصابعها التي تداعب كتفه كدرع يقيه من رياح مفاجئة.

لكن ثمة حقيقة واحدة، جعله ثقلها عاجزاً عن التنفس؛ فذنب بيليندا الوحيد هو أنها أساءت التقدير وخرجت تاركة سيلا ورودي مع تيم ذي

السنوات الخمس وحاضنة.

لقد كرهها لفترة طويلة لأنها تركته لكنها لم تفعل... لم تفعل. أحدهم خطفها منهم جميعاً.

سألته جنيفر: «ولماذا تعتقد ان هذا الشخص اعترف الآن؟».

لقد ألقى اللوم على بيليندا كل تلك السنوات وهي ميتة.

هزّ فريد كتفيه وقال: «يقول البعض في وحدة الأشخاص المفقودين إن السبب يعود إلى فيلم وثائقي عرض حديثاً عن العائلات التي لديها مفقودين وكيف أنّ المأساة لا تنتهي إلا بعد العثور على المفقود أو على جثته».

هزّ نواه رأسه. كان هذا منطقياً، وقال لفريد بتهذيب بالغ: «شكراً فريد. شكراً عل قدومك. لكن هلا تعذرني الآن! عليّ أن أقوم ببعض الاتصالات».

- اتصلت وحدة المفقودين بحمويك وأبلغتهما بشأن زوجتك. إنهما في طريق العودة مع الأولاد. هل تريد مني أن أكون حاضراً حين تنقل إليهم الأخبار؟.

شعر نواه بالبرد في جميع أنحاء جسمه وكأن أحدهم سكب عليه مياهاً باردة. كان يحتاج بعض الوقت لاستجماع أفكاره، وها هم لا يبعدون سوى الساعة عن المنزل. وقال بهدوء: «لا، شكراً».

توجّه فريد نحو الباب من دون أن يلاحظ ردّ فعل نواه أو يهتم له: «قالوا في الوحدة إنك تعرف رقمهم. سوف يمكثون هنا ليوم أو اثنين في حال كان لديك أنت أو أحد أفراد العائلة أي أسئلة».

وعند الباب استدار فريد وأضاف: «أنا آسف يا نواه من أجلك ومن أجل الأولاد. أعرف أنكم كنتم تأملون...».

خيّم الصمت على المنزل لكنه كان صمتاً مخادعاً مثقلاً بالأخبار السيئة. كان عليه أن يستجمع أفكاره وبسرعة لأن الأولاد في طريقهم إلى المنزل، وعليه أن يعرف ماذا سيقول لهم.

١٢ - الضحية المثالية

سألته جنيفر بهدوء بعد بضع لحظات: «هل تريد مني أن أذهب؟».

شعرت أن منزله ليس مناسباً لها، هذا الرجل الذي طلب يدها للزواج يوم اكتشفوا أن زوجته متوفاة.

حدّق فيها نواه بعينين خاليتين من التعبير قائلاً: «لا».

كان الردّ بسيطاً حاداً ومثقلاً بالمشاعر. ارتعشت لحدّته وسألته: «هل أنت واثق من ذلك يا نواه؟ لن يرحّب حماك بوجودي هنا».

- لا تذهبي فأنا أحتاجك هنا.

ارتعشت مجدداً، لكنها استدارت حول الكرسي وغمرت وجهه بكلتي يديها. وبعد شيء من التردّد سألته: «كيف تشعر؟».

مرّت لحظات قبل أن يجيب أخيراً: «لا أدري، لا أدري».

آلمها صدقه. أدركت أن عليها أن تكون صديقته الآن، أن تعرف مشاعره حيال بيليندا بعد أن اكتشف أنها لم تتخلّ عنه مطلقاً، لكن جنيفر لم تتمكن من نطق الكلمات المناسبة. فهذا كثير جداً على امرأة مغرمة.

ابتلعت الألم الذي ملأ حنجرتها ودموع الغضب وحاولت أن تبتسم. ويا لها من ابتسامات ممسوخة مقلّدة عن ضحكاتها الأصلية: «وماذا تحتاج؟».

سحب يديه من بين يديها يفرك جبينه بحركة قلقة مسّت روحها وقال: «الكلمات المناسبة لأقولها لتيم وبيتر وجان».

تمتمت صلاة قصيرة كي تحافظ على المسافة بينهما الآن فهو ليس بحاجة في الوقت الراهن إلى حبيبة. عليها أن تدعه يذهب، أن تمنحه الحق بالشعور بالأسى. وقالت بعذوبة: «ما من كلمات مناسبة نواه. لا يمكنك أن تجعل

الأمر يبدو أفضل لتيم».

تنهد وقطّب جبينه وشعرت بانطوائه على نفسه يتعاظم. وتفهمت وضعه إذ مرّت بالظروف ذاتها بعد موت كودي ولم تشارك أحداً إحساسها العميق بالخسارة.

أن تتفهم هو أن تسامح أو هذا ما يقوله الناس لكن هذا لم يوقف الألم الذي تشعر به في داخلها. تراجعت عنه بجسدها وعواطفها، ولبست قناع الصداقة الذي كانت تضعه منذ بضعة أيام فقط وتقبلته على أنه الأمر المناسب والصحيح: «أترغب في فنجان من القهوة؟».

أومأ برأسه ضائعاً في أفكاره وردّ بغموض: «أجل شكراً».

وضعت الفنجان أمامه فلم يلاحظه وتوترت أعصابها إلى حدّ الانهيار. ماذا تفعل هنا؟

- اسمع، قد يحتاج الأولاد إلى بعض الطعام اللذيذ عند وصولهم إلى هنا. أظن أني سأذهب إلى المنزل وأحضر بعض البسكويت والكيك بالشوكولا.

- لا.

استدارت نحوه متسائلة مرتعبة. كان يقف على قدميه يحدق فيها بغرابة من خلال الدموع التي ملأت عينيه، وقد فتح ذراعيه وهو يقول: «جنيفر».

كان هذا كل ما تحتاجه، فهرعت إليه تلف ذراعيها حول عنقه، تهمس وهي تضمه إليها بقوة: «أنا هنا نواه».

همس بدوره مرتجفاً: «لا أشعر بشيء. ها أنا أرمل على وشك أن يدفن بقايا زوجته ولا أستطيع أن أشعر بالأسى حتى... ما زلت غاضباً منها. ذهبت في نزهة وقتلت في حادث بغيض. ماذا أستطيع أن أشعر بشيء مناسب أكثر من الغضب تجاهها؟».

ضمته إليها بعطف، تمنحه كل ما في قلبها من حب وهي تقول: «كنت غاضبة من كودي أيضاً. أردته أن يصارع المرض، أن يبقى معي لكنه نظر إليّ ذات يوم وهمس: «أنا متعب أمي». وتوقف عن التنفس مباشرة بعد ذلك.

كادت تختنق وهي تشعر بالأسى يجتاحها مع سردها للقصة: «وكدت

أكرهه لقيامه بذلك! مجرد طفل مريض ما كان يجدر به تركي وحيدة».

فورة أحاسيسها جعلته يشعر بالهدوء على ما يبدو، فلف ذراعيه حولها بشدة وهو يقول بسرعة: «هذا ليس حالي، فأنا غاضب من أجل الأولاد. ما كان يجدر بها الخروج من دون الأولاد أو أن تذهب للتسوق من دوني. لقد اتفقنا على هذا حين اكتشفت الديون التي كانت تراكمها. ما كان يجدر بها ترك الأولاد، حتى ولو مع المربية...».

وارتجف دافناً وجهه في صدرها مضيفاً: «لا أريد أن أكون غاضباً منها ولا أريد أن أكرهها، لكن سنوات العذاب الثلاث الأخيرة ما كانت لتمرّ علينا لو حافظت على وعدها وانتظرتني!».

قالت له أخيراً بقلب منكسر: «أنت غاضب لأنك ما زلت تحبها كثيراً رغم أنها لم تعد هنا».

كان لديه الحق في أن يشعر بالأسى، وأن يحب الزوجة التي لم تتركه بل ماتت، لكن ذلك لم يوقف الألم بل زاده سوءاً.

- سواء أكان الحب أم الغضب، ما عدت أعرف. الأمور متشابكة في رأسي. كل ما أعرفه هو أن عليّ شرح الموضوع لصبي صغير حافظ على وعده لثلاث سنوات وانتظر منها أن تحافظ على وعدها وتعود!.

- سوف تجد الكلمات المناسبة. فأنت والده. وهو يحبك ويثق بك أكثر مما تعلم.

تنهّد عميقاً: «ليس ثمة ما أقوله، تعلمين ذلك. فأنت قلت ذلك بنفسك. ما الذي يمكن قوله عندما يتعلق الأمر بتحطيم أحلام وآمال ولد صغير؟».

أثرت فيها كلماته وأنفاسه الدافئة ووقعت على أذنيها كوداع.

لأن ذلك لابد منه. ثمة الكثير بينهما لكنه ليس كافياً، لاسيّما الآن وهو يشعر بالأسى فيما هي تتوق إلى الأمر الوحيد الذي لا يمكنها الحصول عليه. كانت تحب تيم وسيلا ورودي كثيراً لكنها لم ولن تكون أمهم أبداً. فهم أولاد بيلينداً، بل أولاد نواه وبيلينداً. تلك حقيقة ساطعة، تماماً كحقيقتها التي تقول إنها ستنجب دوماً أولاداً مرضى. وستكون تربية أولاد نواه مؤلمة

جداً. فإذا ما سمعت تيم يقول لها أنت لست أمي ستنهار.

كان عليها أن ترحل. ما من خيار آخر أمامها.

لكن حين رفع وجهها إليه وأغمض عينيه يحبس فيها الدموع، أدركت أن تفكيرها لا يتلاءم مع اللحظة، مع كل ما يحصل له والأسى الذي يسكنه. ضمها إليه وكأنها جزء منه لا يريد الانفصال عنه فشعرت بقوة أحاسيسه. كان احتفالاً بالحياة مولوداً من قلب الحداد والحزن. لم يعد يهمها أمر الرحيل. لم يعد يعنيها شيء سوى موجة الحب العارمة التي اكتسحتهما، وحاجته للذوبان فيها.

تمتم يهمس في أذنها: «أحتاجك جنيفر، أحتاجك. لا تذهبي الآن...».

همست تخبره بما تشعر به من رغبة في الارتماء في بحر حبه: «نواه، إني هنا، هنا بقربك».

- ظننت أني أستطيع خوض المغامرة وأن أكون بجانبك اليوم وأرحل غداً، لكني لم أستطع. لن أفرّط بك بعد الآن، فأنت لي جنيفر ولن أدعك ترحلين، أتسمعينني؟ لن أدعك تفعلين ذلك.

أين ذهب نواه الهادئ؟ بدا كمحارب يخوض معركة في الظلام. واهتزت تشعر بما يدور في داخله، عاجزة عن التفكير في ما يتخطى اللحظة الراهنة. كانت تحبه بعمق، أكثر بكثير مما تصوّرت.

أضاءت مصابيح السيارة المدخل، وتعالى صوت الفرامل.

قالت له بصوت مخنوق: «وصل الأولاد».

تجمّد نواه ورمقها بنظرات تكاد تأمرها بلطف ثم قال وهو يقف على قدميه: «ابقي معي هنا جنيفر، لا ترحلي».

ملأها الحزن وهزّت رأسها لكنه قرأ تعابيرها من دون أي صعوبة، فنظر إليها بشوق وقال: «الليلة جنيفر، لن يكون هناك ما نندم عليه أو نعيد التفكير فيه. أنت لي وكفى».

ارتجفت مجدداً وتعلقت به حتى تأكدت أن قدميها أصبحتا قادرتين على

حملها وقالت: «عليّ أن أذهب الآن».

- لا تذهبي، جنيفر.

ورفع يده يسكتها وأضاف: «أعلم أنك تفكرين في بيتر وجان وتيم لكن سيلا ورودي سيشعران بالارتباك والخوف من هول العواطف، سيحتاجان إلى مساعدتك. سيحتاجان شخصاً يحبانه يشرح لهما الموضوع برقة ويخرجهما من الدوامة».

عضّت جنيفر شفتها، فسيلا ورودي ليس لديهما أي ذكريات عن بيلينداً والأسى واللوعة اللذان سيصيبان تيم وجدّيهما سيخيفانهما.

قالت بهدوء: «سأبقى إلى أن ينام الأولاد».

فقال بهدوء صارم: «وحتى بعد ذلك، فبيتر وجان لن يبقيا هنا».

وقبل أن تتمكن من الإجابة انفتح الباب على مصراعيه وهرع تيم إلى الداخل بوجه مشرق متحمّس وهو يقول: «بابا! بابا! لقد عدنا. قال جدّي وجدتي أن ثمة أخبار عن أمي!».

وفي لحظة عاد الرجل المليء بالشغف أباً حقيقياً. راقب نواه ابنه الصغير يركض باتجاهه مدركاً أنها المرّة الأخيرة التي يكون فيها تيم ولداً صغيراً. ركع على ركبتيه يحتضن ابنه بين ذراعيه وهو يقول بصوت خشن حزين: «أجل يا صغيري، ثمة أخبار حقيقيّة هذه المرّة».

شحب وجه تيم لسماعه تلك النبرة وبدأ يقاوم ليفلت من بين ذراعيّ والده: «لا، أنت تكذب. فماما رحلت لفترة فقط!».

ضمه نواه برفق وهو يقول: «لقد وجدوها يا صغيري، فهي لم تهرب مطلقاً. أصيبت بالأذى يوم رحلت، وهي ترقد الآن بسلام إذ لم تعد حزينة أو متألمة».

- لا. لا.

جاء التأوه من جهة الباب المفتوح حيث وقفت جان متمسّكة بقبضة الباب فيما شحب وجهها وراحت ترتجف.

ارتمى تيم بين أحضان نواه، يتأوه متألماً.

www.elromancia.com

أما بيتر فتوجّه إلى الهاتف يطلب رقماً، لا شك أنه رقم وحدة الأشخاص المفقودين.

قال نواه بهدوء: «الأمر صحيح بيتر. صدمتها سيارة وهربت، لكن ضمير السائق صحا أخيراً فبعث برسالة عن مكان دفنها وقد وجدوا جثتها».

وشعر بكتلة ما في حنجرته تسدّ مجرى الهواء وتخنقه فأخذ نفساً عميقاً ثم انفجر باكياً يذرف دموعاً لم ترَ خديه منذ أن فقدت. حضن ولده بين ذراعيه وراحا يبكيان معاً، في حين كان بيتر يصرخ على الهاتف فيما ظلت جان تهز رأسها ترفض التصديق أن ابنتها...

لقد وصل الحلم إلى نهايته. ماتت ابنتهما وزوجته وأم أولاده، بسبب حادث غبي، لأن أحدهم كان يقود بسرعة من دون أن يفكر بالعواقب وانهارت العائلة...

لا، لم تفعل يا نواه فأنت جمعت شملها. والأولاد بخير بفضلك أنت.

من قلب الحزن والأسى جاءه صوت بيليندا واضحاً حتى كاد يستدير بحثاً عن مصدر الصوت.

إن اختيارك جيد فهي امرأة جميلة ومحبة. وستعامل أولادنا جيداً.

لم يسعه إلا أن يدير رأسه نحوها. كانت تضع سيلا ورودي في حضنها على الأريكة في أبعد زاوية من الغرفة تحضنهما بحنان. كانت ملامح جنيفر مليئة بالعاطفة وهي تغمرهما وتقول لهما إنهما بجانبها وإنه لا بأس أن يبكيا.

ألقت سيلا يدها على صدرها هاربة نحو الملاذ الوحيد الذي تعرفه وهو النوم، بينما راحت جنيفر تداعب شعرها وتهمس كلمات رقيقة لرودي الذي بدأت دموعه تجف.

استمر تيم يضرب صدر نواه بقبضتيه الصغيرتين مطلقاً تلك التأوهات الصغيرة فيما نواه يتمتم مكرراً: «لا بأس صغيري. أمك لم تتركك مطلقاً. كانت تحبك وتحبنا جميعاً. لم يكن ذنبها. هي لم تتخل عنك أبداً».

وأخيراً، أقفل بيتر السماعة محدقاً في زوجته بعينين يملأهما الرعب والانهيار فارتمت جان في أحضانه تجهش بالبكاء.

رفع تيم نظره إلى نواه وقال: «لكن جدي وجدتي قالا...».

كان نواه يعلم ما لا يستطيع تيم قوله، فردّ: «إنهما يحتاجان لأن يصدقا أني المذنب تيم. لطالما تفهّمت ذلك».

ورمق حماته بنظرة سريعة وأضاف: «كانا يحتاجان لأن يصدّقا أنها لا تزال حيّة. أرادا سبباً يجعلها تمتنع عن العودة».

هزّ الابن رأسه وهمس: «لكن الذنب ليس ذنبك... أبي...».

الدموع المنسكبة على خدّيه امتزجت بدموع ابنه الذي شعر بقربه مجدداً وقال: «لا تفعل صغيري. أعلم أنه كان عليك الحفاظ على وعدك».

كان تيم يشهق بالبكاء فوق صدره هامساً: «بابا، بابا».

وأخيراً، وبعد ثلاث سنوات طوال أدرك نواه أن ابنه الصغير سيكون بخير. لقد عاد إلى المنزل أخيراً. حرّرت بيليندا تيم من الوعد الذي أثقل كاهليه. إنها الخاتمة. يبدو وكأن بيليندا منحتهم جميعاً رضاها ورحلت...

- ماذا تفعل هذه هنا؟.

أذهلتهم نبرة جان المتهمة فقفزت سيلا عن حضن جنيفر وبدأت بالبكاء فيما عاد رودي يتأوه مجدداً، ولاحظ تيم للمرة الأولى وجود جنيفر بينهم فشهق يبكي وركض إليها قائلاً: «جين، لقد ماتت أمي».

شهق كل من بيتر وجان، وكأن تيم خانهما. أرادا ما يوجهان غضبهما نحوه وها قد وجدا الهدف المثالي. وصرخت جان مجدداً: «ماذا تفعل هذه هنا؟ إنها غريبة ولا تعرف ليني!».

لكن نواه شهد ما يكفي فقال: «كفى جان، الزمي حدودك. جنيفر صديقة مقرّبة من العائلة وهي تقوم برعاية سيلا ورودي معظم الأيام، والأولاد يحبّونها».

وصرخ بيتر: «إنها غريبة. ولا تستحق أن تكون هنا».

قالت جان بصوت ارتعب له الأولاد الثلاثة وراحوا يبكون: «لم تكن تعرف ليني!».

- كلا، لكنها تعرف الأولاد. ولمرّة واحدة أودّ لو تضعي مصلحة

أحفادك قبل مشاعرك. الأمر لا يتعلق بيبلندا بل بحاجات أولادي، وهم يحتاجون جنيفر!».

- أخرجي، أخرجي من هنا!.

لكن نواه تصدى لها وقال ببرودة: «هذا منزلي جان، وأخبرتك أن جنيفر مرحّب بها. لقد أحببت بيلندا طيلة حياتي كذلك. أعلم أنكما تتألمان لكن لن أسمح لكما بأن تحمّلا جنيفر تبعة ذلك. بيلندا رحلت، الأولاد يحبون جنيفر وأنا أيضاً».

شهقت جان وشحب لونها فيما تقدّم بيتر خطوة وهو يقول غاضباً: «تباً أيها الولد! لقد اكتشفت للتو أن ابنتنا، زوجتك توفيت».

رفع نواه يده بوجهه قائلاً: «كم سنة ينبغي أن أعيش وحيداً لأثبت لكما أني أحببتها؟ لقد وضعتما تيم ككلب مراقبة يمنع أياً كان من الاقتراب مني. وظللتما تذكّرانه بالوعد الذي قطعه، وتعدّان العائلة لعودة بيلندا. وها قد صرتما تعرفان أن هذا لن يحصل. اعلما أنّ تيم يحب جنيفر بقدر ما يحبانها سيلا ورودي».

وصمت لحظة ثم تابع: «لن أسمح لكما بإفساد ذلك من أجل حاجتكما لإبقاء بيلندا حيّة. سأحرص على أن يعرف أولادي من هي أمهم الحقيقية لكنها توفيت الآن وهؤلاء الأولاد يحتاجون أماً لهم. وأنا أحتاج جنيفر. أحبها وأريد الزواج بها».

انفجرت جان بالبكاء مجدداً ووقف بيتر في وجه نواه يشتعل غضباً... لكن نواه صبّ اهتمامه على المرأة التي تجلس بصمت وهي تحمل أولاده بين ذراعيها.

قال بيتر بغضب: «أنت تنسى بسرعة. وهذا يدل على ما كانت تعنيه صغيرتي بالنسبة لك».

أجاب نواه بحدّة جعلت بيتر يرتدّ إلى الوراء: «كفى، لن أقدم اعذاراً فقد قاسينا ما يكفي من العذاب».

التقت أعينهما من دون أن يرف لنواه جفن: «الذي شيء واحد أقوله

بعد. على مدى ثلاث سنوات سمحت لكما بإلقاء اللوم عليّ في كل ما حدث، لكنكما دمرتما تيم بفعلكما هذا، ولن أسمح بذلك بعد الآن. لم أكن مسؤولاً عن اختفاء بيلندا وأنتما تعرفان ذلك الآن. سأرحّب بكما دائماً هنا، لكني لن أسمح مطلقاً بهذه الطريقة مجدداً. لم تكن بيلندا لتسمح بذلك قط».

عند ذكر اسمها، شحب وجهاهما وعلم أن كلامه شكل صفعة قوية لهما. وعاد يقول بهدوء: «آسف. لكن كان عليّ قول ذلك. كلاكما الآن يحتاج للحداد لكني والأولاد نحتاج لأن نسير قدماً، فقد أخذنا حصتنا».

مد بيتر ذراعيه للأولاد وقال: «علينا الذهاب الآن. تصرفوا بشكل جيد مع... والدكم ولا تنسوا والدتكم أبداً».

ورمق جنيفر بنظرة غاضبة عندما تردّد الأولاد في الذهاب إليه، فقالت برقة تتفادى نظرات نواه: «اذهبوا وودعوا جدكم وجدتكم واشكروهما على العطلة الرائعة».

وفيما كان الأولاد يعانقون جان وبيتر فكر نواه بالعطلة التي لم يمضوها وتعهّد بأن يأخذهم حالما يصبح الطقس أكثر دفئاً.

ومن ثم لاحظ جنيفر التي جلست جامدة على الأريكة. لم تكن تنظر إليه، لم تنظر إليه منذ أفصح عن نواياه لبيتر وجان.

ولم يبد عليها أنها امرأة مغرمة، بل ظهرت وكأنها تتوق للانعتاق.

١٣ - لن أدعك ترحلين

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة عندما خلد إلى النوم.

عادت مجدداً إلى غرفة الجلوس حيث تمطت بعد ان شعرت بعظام ظهرها تتكسر. كانت متعبة جداً لكن المسألة لن تنتهي عند هذا الحد. لن يتركها نواه ترحل من دون أن...

أحسّت بكتلة تعلق في حنجرتها. كان لديه الحق في أن يتوقع شيئاً ما، فلو قصدت أن تعبّر له عن رفضها اليوم لما ضمّته إليها بعطف وساندته وبقيت في بيته.

لكم تريده في حياتها! لكم تحبه بكل جوارحها لكنها لا تستطيع معانقته مجدداً أو السماح له بالتودد إليها وترفض عرضه بالزواج مرة أخرى.

عندما سمعت وقع خطواته يقترب كادت تهرب، لكنها أحسّت بالعار. إن كان نواه قد استطاع مواجهتها يوم رفضت عرضه بالزواج، ويوم اكتشف أنه صار أرملاً وجعل ابنه يتقبّل خسارة أمه، فهل يحق لها أن تكون جبانة؟.

وهكذا استدارت نحوه وابتسمت تقول: «يا له من يوم حافل».

لم يحفل بهذه المقدمة بل اخترقتها عيناه الحمراوان وقال: «لكنه انتهى بالنسبة إلينا، أليس كذلك؟ قولي الحقيقة وحسب جنيفر. إني متعب جداً للّف والدوران».

بدا لها أن نواه لن يدعها تفلت منه، وإن كانت سترحل فعليها القيام بذلك بنزاهة. مشت نحوه وقالت له: «لقد تغيّرت أمور كثيرة منذ بعد ظهر هذا اليوم».

سألها بشعر بقلق عميق: «إلا رأيك، أليس كذلك؟ لم تنظري إليّ منذ

أخبرت حمويّ عن رغبتي في الزواج بك».

فتحت راحتي يديها تتضرّع لأن يتفهمها وتقول: «أخبرتك لما لن أتزوج ثانية. والسبب لم يتغير ولن يتغيّر أبداً».

- أنت ترفضينني لأنك تريدين طفلاً مني. تحبينني كما أحبك لكن لا يمكنك إنجاب أطفالي. لذا علينا نحن الخمسة أن نعاني من نتائج القرار. لا تحصلين على ما تريدين فتفوتنا جميعاً فرصة السعادة. أهكذا هو الأمر؟.

جعلتها الكلمات تحبس أنفاسها حتى كادت تختنق، وملأت الدموع الحارقة عينيها: «نواه...».

فقال لها بنبرة أقرب ما تكون إلى نبرة الحديث العادي: «أهذا كل ما لديك؟ أنت من قال إننا لا نستطيع أن نحصل دائماً على ما نريد. لذا، أخسر حبك مدى حياتي بسبب خلل جيني ويخسر الأولاد أماً يعشقونها لأنهم ليسوا كافين لها».

شهقت تقول: «الأمر ليس كذلك».

إنه العكس تماماً... فهي ليست كافية لهم.

تابع كلامه وكأنها لم تتكلم: «أجل، يبدو أننا لا نحصل دوماً على ما نريد، لكن رحيلك عني، عنّا، لن يمنحك طفلاً. ما من شيء سيمنحك طفلاً، لكنك لسبب ما تعتقدين أن عليك معاقبتنا جميعاً».

قالت بصوت مخنوق: «كلا! لم أقل ذلك مطلقاً أو أفكر فيه... نواه... أرجوك...».

- لم تقولي، ألم تقولي ذلك فعلاً؟.

فجأة وقف أمامها وقال بنبرة آمرة: «أكاد أقسم أن هذا ما قلته. أنت تحبينني لكني لست كافياً لك. تريدين طفلاً مني لكن أولادي الثلاثة وكل الأولاد الآخرين الذين تقومين برعايتهم لا يكفونك. عليهم أن يخرجوا من جسمك ليستحقوا حبك مدى الحياة».

الغضب في كلامه هزها من الأعماق بحيث بدت حجتها تافهة: «لا، ليس كذلك...».

- أليس كذلك؟.

لم تكن تعرف ماذا تقول. فما من كلام يجعل الوضع صحيحاً. كيف لها أن تقول ذلك؟ قل لي إنك تحبني بقدر ما تحب بيليندا. قل لي إن الحزن الذي رأيته الليلة لم يكن حزن رجل ما زال مغرماً بزوجته!.

لطالما كانت الخيار الثاني! لا يمكنها أبداً أن تكون المرأة التي أحبها منذ كان في الثالثة عشرة من عمره، لكنها تستطيع أن تكون زوجة وأماً رائعة... بديلاً ثالثاً.

قالت متلعثمة تشعر بالحماقة: «إني آسفة، ما من يوم أسوأ لهذا...».

أشاح بوجهه وتشنج جسمه وهو يقول: «ما من يوم مناسب جنيفر. عليّ أن أصنع معجزة لأكون كافياً لك. حقيقة أنك تتخلّين عني في اليوم الذي أكتشف فيه أن زوجتي متوفاة أمر ثانوي. ووقوعي في حبك كان بقرار مني، إنه مشكلتي أنا فأنا رجل ويمكنني معالجة مسألة خسارتك إن اضطررت لذلك. لكن واقع أنك جعلت الأولاد يحبونك ويعتمدون عليك وينظرون إليك على أنك أمّهم في حين قرّرت أن تتخلي عنهم، فهذا ما لا أصدقه منك».

تراجعت خطوة إلى الوراء، لكنها لم تجد ما تقوله. هل تفعل؟ هل تحبني نواه بعد أن عرفت الآن أن بيليندا لم تتخلَّ عنك بل ماتت؟ تردد صدى هذا السؤال في رأسها، لكنه بدا أنانياً للغاية، نظراً لما قاساه هو وعائلته اليوم.

لم يعد ينظر إليها الآن، وهو يقول: «هل فكرت يوماً في ما تفعلينه وأنت تجعلين ثلاثة أولاد فقدوا أمهم يحبونك ويعتمدون عليك؟ إن لم يكن لديك نيّة إعطائنا أيّ فرصة، فلِمَ لم تحافظي على المسافة التي تفرضها المهنة عليك كما تفعلين مع بقيّة الأولاد؟».

- أنا... أنا لم أقصد أن... ظننت....

- ماذا؟.

- كانوا يحتاجون إليّ أكثر من بقية الأولاد. أردت فقط أن أساعدهم. اعتقدت أني سأكون أماً انتقالية لهم، أساعدهم على الشفاء حتى تجد لهم أماً

أخرى.

قال بسخرية هادئة: «كم هذا نبيل منك! لكن لابد أنك لاحظت كم أصبحوا يعتمدون عليك؟ وكنت تعلمين أني لا ألعب. لست ذاك النوع من الرجال. لذا، متى بدأت تتغاضين عن مدى الضرر الذي ستلحقينه بهم، بسبب رغبتك في لعب دور الأم معنا؟ متى أصبحنا بالنسبة إليك عائلة يمكن رميها؟ هل حدّدت موعداً للنهاية أم أنك خططت لتعريفي إلى أمّ للأولاد في الزمان والمكان المناسبين؟».

بدا وكأنه يضع مرآة أمام وجهها، وكأنها ترى نفسها بوضوح للمرّة الأولى منذ وفاة كودي. لقد انسجمت كثيراً في لعب دور الأم وسيدة المنزل لعائلة برانيغان، من دون أن تفكر في العواقب البعيدة المدى بالنسبة للأولاد الرائعين أو الرجل الذي كافح وحيداً لسنوات. كل ما أرادته هو تقديم المساعدة، أن تكون قريبة منهم لكنها ومن دون أن تتعمد ذلك تلاعبت بمصير عائلة برانيغان، وعليهم الآن أن يدفعوا الثمن.

- لا تعودي إلى هنا جنيفر. لا تقتربي مني أو من أولادي إلا إذا كنت تنوين البقاء طيلة حياتك. لا تلعبي معنا دور الأم. أولادي ليسوا عرائس تلهين بهم.

لم تسمعه من قبل بهذه القسوة والصلابة. كان يعني كل كلمة يقولها. لن يكون هناك المزيد من المزاح في مطبخها أو في الحديقة ولن يكون هناك المزيد من الابتسامات والعناق من الأولاد الذين ملأوا حياتها. لن يكون هناك المزيد من نواه.

لن يكون هناك المزيد من كلام الحب، سواء أكانت هي حب حياته أم ثاني أكبر حب في حياته.

لقد انتهى الأمر. لم تكن تستحقهم.

وبصوت خافت استدارت وهرعت نحو الباب، حتى أنها تمكّنت من الوصول إلى الحديقة الخلفية قبل أن تتقيأ.

* * *

بعد ستة أسابيع.

- أبي، إنه ساخن. تحتاج إلى قفاز.

ونهض تيم عن الطاولة مسرعاً ليعطي نواه قفازاً يحميه.

وضع نواه القفاز قبل إخراج صينية الطعام من الفرن ثم قدم لهم الطعام وجلس إلى الطاولة يقطع الطعام لسيلا ورودي لكنه لم يأكل.

شعر أن تيم يراقبه كما اعتاد أن يراقبه في الأسبوعين الماضيين بعد عودتهم من سيدني حيث أقيم جناز ليليندا. قال له ليشتت انتباهه: «تيم أنت لا تأكل كثيراً يا صغيري».

- أنت لا تأكل أبداً.

نبرة تيم العدائية أذهلته، فقد كان هادئاً منذ عودتهم. قطب نواه ونظر إلى الطعام أمامه ودفعه جانباً وهو يقول: «لست جائعاً الليلة».

- لم تشعر بالجوع منذ عودتنا. وقد كنت غريب الأطوار منذ لم تعد صديقاً لجين. إن كنت تريدها إلى هذا الحد، فلمَ لا تذهب وتحضرها؟.

انفجر رودي بالبكاء وبدأت سيلا تمص إصبعها. لم تسر الأمور بشكل صحيح منذ رفضته جنيفر. وكانت عائلته تتشتت مجدداً... شعر نواه بالدم يجف في عروقه لكنه قال بهدوء كبير: «كف عن ذلك تيم».

ودفع بكرسيه إلى الوراء وخرج يركض مجدداً. لم يتركهم وحدهم بل بقي حيث يمكنهم مناداته، لكنه ظل يركض ويركض.

وبعد خمس دقائق، خرج تيم من نافذة غرفة نومه.

ها هو نواه يركض مجدداً!

أغمضت جنيفر عينيها. عليها أن تكف عن مراقبة منزل عائلة برانيغان وإلا قد تصاب بالجنون...

لكن بعد بضع لحظات عادت تنظر مجدداً. ماذا لديها لتفعله سوى ذلك؟ عندما فات الوقت على تغيير الأمور أدركت كم هي فارغة حياتها من دونهم. لقد عادت إلى مجموعة الخياطة وتولت مسؤولية رعاية المزيد من الأولاد، لكن ما من شيء ساعدها على التخلّص من الشعور بالانقباض في صدرها.

وظل الألم الذي تشعر به في قلبها يكبر ويتعاظم لأن الأشخاص الذين تحبهم أحياء ويمكنها أن تتواجد معهم طوال الوقت لو لم تكن عمياء أو حمقاء إلى هذا الحدّ.

إذاً، اذهبي إليه، اذهبي إليهم!.

لأقول ماذا؟ إني الحمقاء التي تستحق جائزة الحماقة، وإني لا أستحق أحداً منكم، لكني أحتاجكم وأحبكم وأرجو أن تقبلوا بي كثاني أفضل خيار؟ لكنها فجأة ركزت نظرها. أجل، بالرغم من المسافة رأت بفضل ضوء القمر الساطع المكتمل، شخصاً صغير الحجم يخرج من النافذة.. أغمضت جنيفر عينيها تتضرّع لأن يأتي إليها ولا يهرب مجدداً.

ويبدو أن دعاءها استجيب إذ توجه إلى السياج الفاصل وقفز فوقه وركض نحو الشرفة وهو يصرخ بإلحاح: «جين، جين، جين!».

وصلت إلى الباب قبل النداء الأخير. رأت الإلحاح في عيني تيم فضمّته إليها بقوة وأدخلته إلى المنزل وهي تسأل: «ما الأمر يا صغيري؟ هل ترغب في بسكويت؟».

هزّ تيم رأسه وثبت نظره عليها يسألها بوضوح قطع أنفاسها: «لماذا لم تعودي صديقة لنا؟ أما عدت تحبين... رودي وسيلا؟».

في خضم الألم الشديد في قلبها، أرادت أن تبتسم له لكنها حافظت على ملامح رصينة وردت: «بالطبع أفعل تيم، أنا أحبكم جميعاً».

- إذاً لمَ لم يعد رودي وسيلا يبقيان معك؟ ولمَ أحضر أبي شخصاً آخر لينهي العمل على الشرفة والمنزل الصغير أثناء غيابنا؟ ولمَ تعرضين منزلك للبيع لترحلي؟ ولمَ لا نتناول العشاء هنا ونلعب الآن؟ فنحن، أعني سيلا ورودي يفتقدان الأمر كثيراً! إنهما يفتقدانك!.

كانت كلماته تنضح بالشراسة والألم اللذين حاول إخفاءهما جاهداً. وذاب قلبها وهي تقول: «إذا سمح لكم أبوكم بالمجيء فسأرحب بكم هنا دوماً».

لكنه لن يسمح لها بالتخلص منه: «لمَ يصاب أبي بحزن عميق ويشحوب

عندما نريد رؤيتك؟ إنه حزين كما كانت أمي».

التمعت عيناه بشدة بعد أن اغرورقتا بالدموع وارتجفت شفتاه وهو يتأوه: «إني خائف جين، فأبي لم يعد كما كان ولا أستطيع تحسين حاله. إنه لا يأكل كثيراً ويستمر بالحرب وهو حزين طوال الوقت!».

ضمّته جنيفر إليها بشدة تربت على ظهره وتقول: «آه، يا صغيري تيم كم أنا آسفة».

وترددت قبل أن تتابع: «هل أبوك حزين حقاً؟».

هزّ الولد رأسه الذي كان مستقراً على صدرها وآلمها عذابه، لطالما أحبت هذا الولد القوي السريع التأثر: «هل تظن أنه حزين بسبب أمك؟».

تفلت من بين ذراعيها: «كلا. أعرف أنه حزين لأنه يفتقدك، فهو لا ينظر إلى جهة منزلك. حتى سيلا ورودي يفتقدانك. لماذا لا تأتين إليهما؟».

لم يعد هناك مجالاً لتفادي الأمر، يجب أن تكون صادقة: «أراد أبوك الزواج بي يا تيم لكني ظننت أني لا أستطيع ذلك».

سألها بعينين متوسلتين: «لماذا؟ هل هذا بسببي؟ هل السبب هو شقاوتي؟ يمكنني أن أحسن التصرف جين، أعدك».

عادت تلف ذراعيها حول عنقه وتقبل جبينه وخدّيه وتقول: «تيم، أنت فتى رائع. ولم يكن الأمر...».

كان صوته مبحوحاً عندما تكلّم أخيراً: «لم أعد ولداً صغيراً، جين. أعلم أنك تحبين أبي لأنك كنت دوماً ترمقينه بتلك النظرات».

كان على جنيفر أن تخنق ضحكاتها ودموعها في آنٍ معاً وهي تسمعه يصرخ مجدداً: «لماذا لا تكونين أمنا؟».

ترددت قبل أن تقول: «الأمر لا يتعلق بك أو بعائلتك بل يتعلق بي أنا. إني أعاني من مشكلة...».

كان صوته شبه مخنوق وهو يلصق وجهه بكتفها قائلاً: «ألا يمكنك التخلص منها؟».

قالت والحزن يغمر روحها عند التحدث عن كودي وتيم بين ذراعيها.

كان الأسى أعمق من أن يحتمل وهي تفصح: «كلا لقد خسرت ولدي الصغير منذ بضع سنوات أتفهم؟ توفي كودي تماماً كما توفيت أمك. كان مريضاً جداً. لدي مشكلة ما. وإذا أنجبت أطفالاً آخرين فسيمرضون، وهذا ما جعلني حزينة. لأني أعتقد أني سأفتقد لذلك كثيراً، لكن ليس بقدر ما أفتقدكم جميعاً».

ارتد تيم عنها بعينين يائستين: «لكن هذا ليس عادلاً! ألا يمكن لرودي أن يكون ابنك الصغير؟ ألا يمكن أن يضمك إليه، وأن يكون مثله؟ ألا يمكن لسيلا أن تكون ابنتك كذلك؟ نحتاج لماما جين!».

وارتجف لفورة المشاعر وهو يضيف: «ما عاد أبي يبتسم، وسيلا تمص إصبعها طوال الوقت وتتسلّق الأشجار مجدداً، ورودي لا يفعل شيئاً سوى البكاء. لم يعد يرغب في اللعب حتى...».

وفاضت دموعه تغسل وجنتيه فمسحها بظاهر يده وأضاف: «إنهما يحتاجانك جين، أرجوك. ألا تريدين أن تكوني أمنا، أعني أمّهما؟ وأن تكوني لطيفة مع أبي وتجعلينه سعيداً؟ إذا... إن أردت المزيد من العناق فسأعطيك البعض منه».

أنهى كلامه بوجه مليء بالعزم والشجاعة: «وإذا أردت صبيين صغيرين، فيمكنني أن أكون ابنك الصغير أيضاً».

يا له من صبي صغير شجاع! تخرج الحقيقة من أفواه الأطفال، الحقيقة التي تحررها فعلاً.

قد لا ترزق بولد من لحمها ودمها، لكن إن كان هناك من أمر علّمتها إياه الأسابيع الماضية فهو أن الحياة مع عائلة برانيغان تحمل لها فرحاً يتخطى إحساسها بأنها بديل. كانت تفتقد عناق الأطفال بشكل يفوق افتقادها لبقية الأولاد الذين تقوم برعايتهم.

ولم يكن الأمر يتعلق بحاجتهم إليها بل بحاجتها إليهم. منذ اليوم الأول، أدركت في قلبها ما كان عقلها العنيد يرفض رؤيته. لقد أحبتهم كأم لهم منذ البداية... وأحبت نواه. عشقته لدرجة أنها كانت تحسّ بأن قلبها ميت من

دونه.

كان أمامها خياران: فإما أن تحصل على كل ما تريده تقريباً وإما تخسر كل شيء. والخيار الثاني يعني الفراغ والندم طيلة حياتها. وجود تيم معها الآن جعلها تشعر وكأنها أم حقيقيّة، شعرت بأنها محبوبة. وسألته بنعومة ودقات قلبها تتسارع فرحاً: «إذاً تظن أن أباك يفتقدني يا صغيري؟».

ستعود إلى بيتها وأطفالها ونواه الحبيب.

- أجزم أنه يفعل. فهو يحزن كثيراً حين نريد أن نراك و...

أضاء وجه الولد وهو يهمس ويرتعش من الحماسة: «جين؟».

أومأت جين وابتسمت ثم طبعت على وجنته قبلة وهي تقول: «تيم، أنت الولد الأفضل في العالم كله وسأفخر جداً بأن تكون أحد فتياني لكن ليس ولدي الصغير، يمكن لرودي أن يلعب ذاك الدور».

وضحكت للراحة التي لمحتها في عينيه المشعتين وأضافت: «والآن هل يمكنك أن تعود من النافذة، وتفعل ما أطلبه منك تماماً؟».

١٤ - ما أحلى الرجوع!

انطفأت النار مجدداً.

وبصوت يدلّ على قلّة الصبر، جلب نواه علبة كبريت وأشعل النيران تحت قطع الحطب القليلة ثم تراجع خطوة وثبت الحواجز التي تقي الأولاد من النار ووقف يراقب واضعاً يديه في جيبيه.

كيف يمكن لحياة مليئة بالعمل، حيث لا وجود إلا للقليل من أوقات الفراغ أن تكون فارغة إلى هذا الحد؟.

كانت كلمات تيم ترن في رأسه كما لو أنه طبل فارغ. إن كنت تريد عودة جين إلى هذا الحدّ فلِمَ لا تذهب وتحضرها؟.

ستة أسابيع مضت، وهي فترة قصيرة نسبياً لكنه شعر وكأنه لم يرها منذ عام كامل.

لم يلتفت نحو التلة، ولم يبحث عن أضواء منزلها ليلاً، ليتساءل إن كانت ستأتي إليه. من الواضح أنها تتجنبه. وكان يفضل ألا ينظر فهي لم تغيّر رأيها. كانت تحبه لكن ليس بما يكفي، لعله نظر نحو منزلها في الأيام القليلة الأولى بعد عودتهم من الجنازة لكنه لم يعد يفعل الآن.

أي جنازة تلك؟ كل ما فعله هو التعرّف رسمياً إلى جثة زوجته من الخاتم والمحفظة المهترئة وحضور مراسم جنازة غير حقيقية. بقيت قضيتها عالقة بسبب الرسالة... لكن ليس من الضروري إخبار الأولاد.

شعر أن بيليندا ارتاحت أخيراً مع وجود جثتها، لكن هو لم يرتح بعد. قال إنه يستطيع التأقلم مع خسارة جنيفر، لكن طوال فترة التجربة المريرة، بدءاً بالتعرف إلى خاتم الزواج ومحفظة النقود المهترئة وبقايا العظام وحتى أثناء

www.elromancia.com

مراسم الجنازة مع ابنه المتألم الباكي وحمويه، كل ما استطاع التفكير فيه هو سؤال واحد: لماذا جنيفر؟ لماذا لم تحبيتني بما يكفي لتكوني معي الآن؟ كان يعتقد أنه قوي بما يكفي. . . لكن ألم لخسارة جنيفر كان يزداد سوءاً مع كل يوم يمضي. لقد فعل كل ما بوسعه. وقد ناضل من أجلها، لقد. . .

ألم يفعل؟

وطرف بعينيه، فهل ناضل حقاً من أجلها؟

لقد ناضل ليجعلها تحبه، لكن هل أغفل شيئاً ما ولم يفعله؟.

لقد علّمته السنوات الثلاث أو الأربع الماضية أن يقدّم أولاده على حاجاته الخاصة، فهم يجب أن يأتوا أولاً. وتغاضى عن حاجاته ورغباته وحبه من أجل مخاوف تيم. . .

حتى حين التقى جنيفر وعلم أنها تحبّه، وأنها اتخذت قرارها بالرحيل، تركها تفعل. تركها ترحل بدلاً من أن يخاطر بكل شيء وبدلاً من أن يناضل من أجلها، لأن الأولاد سيتأذون.

يا لها من أعذار تافهة! إنهم عذرك وأنت تعلم ذلك فأنت تخشى أن تكون رجلاً مجدداً.

إن كنت تريدها إلى هذا الحدّ، فاذهب وأحضرها!

وتفجرّت في داخله مشاعر الرجولة. تلك المشاعر التي خسرها منذ ثلاث سنوات لصالح مشاعر الأب لن يتنكر لها مجدداً. ما الذي يفعله هنا وحيداً في حين أن حب حياته لا يبعد عنه سوى أمتار قليلة؟.

وقبل أن تنضج الفكرة في رأسه وجد نفسه يخرج من باب بيته متوجهاً نحو منزل جنيفر. سوف يفعل كل ما يتوجب عليه ليجعلها توافق، فالفشل لم يعد خياراً.

ناداه صوت آمر من داخل المنزل: «أبي، أبي».

استدار نواه للحظة فقط ثم قال: «كلا تيم، عد إلى السرير. لا بأس أنت بأمان. سوف أعود في غضون خمس عشرة دقيقة. أحل معي هاتفي في حال احتجتم شيئاً».

- لكني حضّرت لك مفاجأة يا أبي، مفاجأة ستجعلك سعيداً.

ردّ صارخاً وهو يجدّ في السير: «يمكنها أن تنتظر».

وصرخ تيم بصوت مرتعب: «إلى أين تذهب أبي؟».

- لإحضار جنيفر!

لم يهتم ما إذا ثار ابنه فهو أيضاً بحاجة لجنيفر حتى لو لم يكن يدرك ذلك.

لكن وبعد لحظة سمع صرخة فرح من داخل المنزل: «هيا أبي، اذهب وأحضرها».

وعلى الرغم من لمحة العزم المتجهم على وجهه، لاح طيف ابتسامة.

كانت الأنوار مضاءة في منزلها، لكنه لم يأبه إن أيقظها أو حطم باب منزلها. فإن كانت تعيش حالة مثل حالته فلن تنام. وقفز فوق السياج الفاصل. . .

أخذ يصرخ بأعلى صوته وهو يصعد الدرج نحو الباب الخلفي الذي عرف أنه سيكون منزله منذ اليوم الأول، ونحو المرأة التي عرف منذ اليوم الأول أنها ستكون له. طرق الباب بقوّة ينادي: «جنيفر!».

وبعد لحظات، فتح الباب على مصراعيه لتطل منه امرأة تسرّح شعرها وتحدّق فيه. ظهرت ابتسامة على ثغرها تحمل الفرح والخوف في آن معاً فيما ارتسم الحب على وجهها. . . همست: «نواه».

وأخذت تتأمل ملامح وجهه بعينيها المتسعتين المملوتين بالتساؤل والفرح كولد يشاهد ديزني لاند للمرّة الأولى.

ومن دون أن ينطق كلمة واحدة، أخذها بين ذراعيه وضمّها إليه بلهفة المشتاق وهو يقول بأنفاس متقطعة: «أنت لي».

تلمّس شعرها ونظر في عينيها بعمق: «أحبك وتحبيتني وسوف نتزوج. لن أدعك تفلتين مني بسبب حلم لا يمكن تحقيقه. ولن أتخلى عنك لأنك تظنين أنك لست كافية لنا. فأنت كذلك، تحبين أولادي وهم يحبونك وهذا أكثر من كاف. نحن لبعضنا أنت وأنا والأولاد. أنا لا أطلب منك الزواج بي بل. .

ابتعدت عنه بعينين لامعتين وقالت: «أجل نواه، أجل».

أصدر صوتاً عميقاً آخر وعانقها مجدداً وهو يقول: «من الأفضل أن تكوني قد عنيت ما قلته لأني أعتبره وعداً منك. سوف نشتري الخاتمين غداً وسأتصل بوالدي ليعودا إلى الديار فسوف نحتاج إليهما لرعاية الأولاد أثناء شهر عسلنا».

أطلقت جنيفر ضحكة من الأعماق جعلت عضلاته تنقبض أكثر فأكثر، وتمتمت تقول وهي تطرف بعينيها: «أجل حبيبي. وهل ستقول لي متى موعد الزفاف وأين؟ قد يرغب أخي وأخواتي بالحضور».

لكن عناقه لها كان أكثر قوة وحرارة من أن يتذكر السؤال لبرهة. همس من دون أن يفلتها من بين ذراعيه: «بعد أربعة وثلاثين يوما».

همست بعينين مشعتين: «لا أطيق الانتظار»

وعانقته بشدة وحميمية تعكس مدى صعوبة الأيام التي عاشتها في الأسابيع الماضية وأضافت: «أحبك جداً نواه، وقد افتقدتك كالمجنونة».

ضحك يتنابه شعور داخلي غريب وقال: «أكاد أجزم بذلك».

رأى أن السعادة العائلية البسيطة أمر عليه الاعتياد عليه مجدداً لكنه لا يظن أن الأمر بغاية الصعوبة. لن يكون كذلك وجنيفر زوجته.

ضحكت مجدداً ولامست ذقنه: «دعنا نذهب لنخبر الأولاد».

طوّقها بذراعيه وأدارها نحو المنزل وهو يقول: «ظننت أنك ستصعبين الأمور عليّ».

فقالت بهدوء: «أنت تقلل من أهمية قدراتك فلم تمضِ ساعة أو يوم لم أرغب فيه بإرجاع عقارب الساعة إلى الوراء وأهرع إليك. لقد افتقدتك كثيراً».

ساعدها لتقفز فوق السياج لأنه لا يريد الابتعاد عنها قيد أنملة في تلك اللحظة وقال: «كان بإمكانك أن تأتي إليّ».

لكن لم يعد مهماً في الوقت الحاضر الماضي، فهي حيث يريدها أن تكون، معه وتحبه، وهذا كافٍ بل أكثر من كافٍ.

- لم أستطع ذلك. لم أكن أعرف إن كنت تحبني يا نواه، لا سيما بعد أن علمت أن بيليندا لم تتركك. قلت لي حينها ذلك لكني لم أقتنع، ربما لأنني لم أصدّق أني أستحقك. ظننت أنك إذا افتقدتني بما يكفي وإن كنت تحبني بما يكفي فسوف تأتي إليّ، وها قد فعلت...

توقف وأدارها نحوه وغمر وجهها بين يديه يهمس: «جنيفر، جنيفر».

كان صوته العميق ونبرته الصادقة يعبّران عما تعنيه له: «حتى لو تبيّن أنها حيّة، ما كنت لأعود إليها. لم أعد ذاك الصبي الذي تزوجته يوماً، بل صرت رجلاً كله لك أنت. كنت واثقاً من ذلك حتى حين أخبرني فريد أنها توفيت. ظننتك واثقة من ذلك أيضاً».

هزّت رأسها تقول: «في تلك الليلة... ما قلته. شعرت بالعار كثيراً نواه».

وارتجف صوتها وهي تضيف: «كنت أنانية جداً، عاقبت الجميع بسبب حلم لم يكن بوسعي أن أحققه. شعرت أني لا أستحقكم».

داعب رقبتها وهو يقول: «سوف أذكرك بذلك في كل مرة نتشاجر فيها أو يتعبك الأولاد».

كان صوته مليئاً بالضحك وطوقته بذراعيها تضحك هي أيضاً فيما تابع: «لكنك قلت إننا لا نستحقك. فما الذي غير رأيك حقاً؟».

تمتمت تقول: «ليس ما الذي غيّر رأيي بل مَن. عليك ان تفخر بابنك البكر، فقد تقدّم لطلب يدي قبل نصف ساعة فقط، من أجلك وسيلا ورودي. كان قلقاً جداً عليكم جميعاً وعلمت أني وبمعاقبة نفسي أتسبب لكم بالأذى. سبق وأظهر لي أني بمثابة أمه سواء أكنت أستحق ذلك أم لا. وقد أخبرني كذلك كم تفتقدوني».

وأضافت بنبرة ماكرة: «سوف أذكرك بذلك كلما تشاجرنا».

ضحك مجدداً يقول: «إذاً هذه هي مفاجأة تيم لي؟ كنت ستأتين إليّ».

- أجل، لقد قمت بتربية ابن رائع سيد برانيغان.

- لا يزال أمامه وقت طويل من التربية يا سيدة برانيغان المستقبلية، جنيفر

برانيغان.

التفتت إليه تقول: «جنيفر لويزا ميليسنت برانيغان، يا له من اسم طويل ومثقل بالمسؤولية. لكن الأمر يستحق العناء».

وفتح الباب قبل أن يطرقاه، وصدرت صرخات مفعمة بالفرح ما أن ظهرا. كانت سيلا ورودي يقفزان ويضحكان ويسألان متى يستطيعان مناداتها ماما ومتى سيزورانها كل يوم.

شعّت عيناها فرحاً وهي تجيب: «الآن إذا أردتما».

وغمزت تيم ثم أرسلت له قبلة في الهواء وهي تقول: «بما أن تيم صبي كبير فقد يرغب بأن يستمر في مناداتي جين».

واستدارت نحو الولدين تعانقهما وتقبلهما وتخبرهما كم افتقدتهما تاركة تيم ليتخذ قراره بنفسه.

غصّ نواه لتفهمها لتيم وتقبلها له كما هو من دون أن تحاول تغييره. يا له من رجل محظوظ!

قال تيم لنواه برصانة رغم الابتسامة العريضة: «أيقظت الولدين لأخبرهما».

كانت ضحكته لا تزال ممزوجة بالأسى، فأمامه مسيرة شفاء؟ لكن بعد تصرفه الذي يدلّ على عدم الأنانية لم يعد لدى نواه أي شك في أن ابنه سينجح في النهاية وأنهم سينجحون جميعاً بوجود جنيفر. ستكون عائلته بخير... وسيكون هو أكثر الرجال سعادة على وجه الأرض.

وأدرك أنهما سيحبان بعضهما البعض ويعيشان كعائلة سعيدة طول العمر. ابتسمت له جنيفر وكأنها تعرف بما يفكر وأعلنت قائلة: «إنه وقت احتفال ولدي الكثير من الآيس كريم والبسكويت في البراد! سوف نحصل على وجبة ممتعة للاحتفال بالمناسبة! اجلسوا حول الطاولة وسنعود أنا ووالدكم بعد دقيقة. تيم هلا حضرت الطاولة؟».

ضحك تيم وأجاب: «طبعاً جين، هيا يا أولاد!».

صرخ رودي وسيلا من الفرح وهرعا مع تيم نحو منزل جنيفر وتركوهما

وحيدين فطوقت جنيفر نواه بذراعين محبتين. استدار نواه نحوها مبتسماً، وسألها بعد أن لاحظ أن لديها ما تقوله: «ما الأمر؟».

ضمته إليها لكنها عادت وعضت شفتها: «أنت تعلم أني أعشق الأولاد لكني لن أتزوج من أجلهم. أنت تعلم هذا، أليس كذلك؟».

كانت نظراتها إليه قلقة، فضحك وقال: «نظراً للطريقة التي تنظرين بها إليّ وتضمينني فيها، أدرك أنك تتزوجين بي لسبب آخر».

همست في أذنه: «سأكون زوجة محبّة ومتطلبة جداً».

- الأولاد ينتظرون الآيس كريم وأنت تقولين لي ذلك. سوف تقتلينني يا امرأة!

- بابا! جين! الآيس كريم! البسكويت! ماما!.

قاطع الصراخ المرح كلامهما وعناقهما فأدركا أن الأمور ستكون على هذا الحال.

وهمست تقول: «سأسابقك».

وتوجها راكضين نحو الأولاد والبسكويت والآيس كريم والحب.

نحو المنزل والعائلة.